

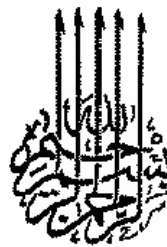
مخاتبة النفس

للحارث بن أسد المحاسبى ٢٤٣ هـ

تحقيق

محمد عبدالقادر عطا

دار الاعداد



دار الاعتصام

٨ سبازج حسين حجازي - ت ٣٥٤٦٠٣١ / ٣٥٥١٧٤٨ ص ب ٤٧٠ القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع

فقه أعمال القلوب

تقديم بقلم : عبد القادر أحمد عطا

في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم :

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وكان الإنسان قد أدخل إلى الأرض بكل همته ومشاعره ومواهبه التي كرمه الله من أجلها ، فعبد ما في الأرض ، وعمل لزيينة الأرض ، واستعبد لما في الأرض وما على الأرض . وكانت الرسالة التي حققها الرسول صلى الله عليه وسلم هي : « رفع همة الإنسان من التسفل إلى التسمي . أو من الزيف إلى الحقيقة » . فعلم الناس أن يتوجهوا بعبادتهم إلى الله ، وأن يعملوا في عمران الأرض وأمور المعاش يبتغون بذلك وجهاً من وجوه رضوان الله ، فتوحد تحت لواء الإسلام كل الإنسان المسلم في الباطن الذي يقوده القلب ، وإن كان في ظاهره منقسماً إلى ظاهر وباطن . ولكنه في الحقيقة كان يعتصم بحركات القلب في عمل العقيدة والعبادة القلبية ، وعمل الجوارح في مظاهر العبادة وعمران الحياة على السواء .

ولقد حفل القرآن الكريم بالحث على ربط العمل بالقلب في جميع الأعمال وتخليص القلب من كل النوايا إلا نية العمل لله دون طلب جزاء ولا شكر من أحد . وكانت عناية القرآن بهذا الأصل مرتبطة بتصفية العقيدة من شوائب الشرك الجلي والخبى ، فقال تعالى : « ... فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » . وروى الحاكم النيسابوري أن هذه الآية نزلت حينما سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله ، وأريد أن يرى موطنى ، يعنى : يريد الله بجهاده ، وفي الوقت نفسه يريد أن يعرف الناس شجاعته وشدة بلائه في الحرب .

ومن هنا تقرر في الإسلام أن تحديد الإرادة من العمل يجب أن يرتبط بالعمل ، فيرتبط القلب بالجوارح في العمل ، ويتقضى عمل الجوارح . ولكن عمل القلب يبقى حارساً أميناً على عقيدة المسلم أن تزيف فيبطل العمل بعد انقضائه على وجه من وجوه الصحة الشرعية : أي أن تحديد إرادة القلب بالعمل يجب أن ينطلق من الإيمان بالوحدانية التي هي صميم الإسلام وصلبه وعموده ، وأن الثنائية في الإرادة كما ظهرت من استفتاء الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي صورة من صور الشرك الكثيرة ، يتعدى خطرها إلى نفس العقيدة ، فما الشرك إلا الوجه الصريح للرياء ، وما الرياء إلا هدم لأصل الإيمان بالله الواحد الأحد .

ولقد أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن علة الرياء في القلب ودوافعه إنما هي طلب عزة المال والجاه في الدنيا ، فقرر أن التمكين في الأرض ، ورفع الشأن والعزة ، أمور مضمونة لهذه الأمة ، ومضمون دوامها إذا انطلقت أعمالها من تبع الوحدانية في العقيدة وفي مقاصد الأعمال ، ويروى في هذا الصدد أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « بشر هذه الأمة بالثناء والرفعة في الدين ، والتمكين في الأرض ، والنصر ، فمن عمل عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب » . ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » . وما الإرادة إلا عمل قلبي خالص يمكن أن يواكب عمل الجوارح يوجهه نحو الحق أو نحو الضلال .

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الدوام لعمل القلب في رواية أبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : « إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً ، وإن قاتلت مرئياً مكاثراً بعثك الله مرئياً مكاثراً » .

فالشرك إذن لا يقتصر على عبادة الوثن أو البشر مع الله ، وإنما ذاك شرك الظواهر ، وهناك شرك السرائر الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رواية محمود بن لبيد رواها عنه ابن خزيمة وابن ماجه والبيهقي بالفاظ متقاربة إذ قال : « أيها الناس : إياكم وشرك السرائر » ، قالوا :

يا رسول الله ، وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلي ، فيزين صلاته
بجاهداً لمسا يرى من نظر الناس إليه . فذلك شرك السرائر .

ورغم ما قال بعض العلماء : من أن شرك الرياء شرك في العمل لا في
العقيدة ، فإننا نرى أن شرك الرياء ينتهي إلى العجب بالأعمال ، والعجب
يهدم العقيدة من أساسها إذ يرى المعجب بعمله المنه في العمل ، واستقلاله
به عن عون الله تعالى مما يجعل شرك الرياء ذريعة مباشرة لشرك العقيدة ،
الآن ترى أن المرائي المسموع في الرياء يصل إلى حال تنعدم فيها عنده مشاعر
العقيدة ووازعها ، فلا يخضع إلا لهوى نفسه ؟ وعابد الهوى أحط من
الحيوان الأعجم كما قال تعالى : « رأيت من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون
عليه وكيلاً . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل
هم أضل سبيلاً » .

ولم يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصورة المثلى للمؤمن المخلص
البريء من النفاق والرياء فقال فيما أخرجه ابن ماجه والبيهقي والحاكم عن عمر :
« اليسير من الرياء شرك . . . إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين
إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ،
يخرجون من كل غبراء مظلمة » . والغبراء المظلمة : الفتنة العمياء .

هكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم على مستوى مسئوليته العظمى
في تبليغ الرسالة ، وفي بيان مقاصد القرآن ، من فقه أعمال القلوب إلى
جانب فقه أعمال الجوارح ، فكما أن لأعمال الجوارح شروطاً للصحة والقبول
فكذلك أعمال القلوب لها نفس الشروط في الصحة والقبول . وكان صلى الله
عليه وسلم في قمة المستويات الفكرية العالمية حين صور مستقبل العالم الإسلامي
حينما يسيطر الرياء القلبي على أعمال الناس الظاهرة بالجوارح ، فقال فيما
أخرج الترمذي عن أبي هريرة : « يخرج في آخر الزمان رجال يختلون
(يسرقون) الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم
أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عز وجل : أبي يفترون
أم على يجترئون ؟ في حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيرانا »
وهذه الصورة ذات دلالة واضحة على أن هناك مشقة في الحفاظ على

القلوب من طوارق الرياء والنفاق ، وإن تسلسل الرياء إليها أمر محتم إذا لم تكن هناك مذاكرة دائمة ، ومراقبة صارمة . وتفتيش دقيق في كل خففة يخفيها القلب وفي كل خاطر يساوره .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم والجيل الأول من التابعين ، لا يفترون عن التذكر والتدبر ، ومحاسبة النفس ، وتفتيش القلب ، والرقابة عليه . حتى بلغ من أمر حنظلة الأسدى أن شك في إيمانه حينما لاحظ أنه يكون في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم حاضر القلب ، حديد البصيرة ، فإذا انقلب إلى أهله ، ومارس حياته الخاصة نسي ما كان يحس به ويعانيه ، فشاور أبا بكر في هذا الأمر ، فأخبره أبو بكر أنه يجد مثل ما يجد . وعليهما أن يستفتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما ذهبا إليه طمأنهما إلى أنهما بريئان من النفاق ، ولكن « ساعة وساعة » : يعنى : لا بد من ترويح النفس بالمباح ، حتى لا تقعد بصاحبها عن العمل .

لم يكن هناك انفصال إذن بين فقه أعمال القلوب وفقه أعمال الجوارح ، بل كانت الرابطة وثيقة بينهما ، والعناية بليغة بهما ، ولم يكن هناك فصام في شخصية الإنسان المسلم بحيث يكون قلبه في واد وجوارحه في واد آخر ، ولهذا لم تكن بالمسلمين حاجة إلى مزيد من الدراسات والتفاصيل حول أعمال القلوب ، لا سيما وأن الحياة لم تكن قد أصيبت بزحام المظاهر ، وظواهر الترف ، وتشابك المصالح وتمقدها ، وخفاء أعمال القلوب تبعاً لهذا التعقيد في وسائل العيش .

أى إنه لم تكن هناك أمية في فقه أعمال القلوب ولا في أعمال الجوارح في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يحتاج الأمر إلى ظهور طائفة تنفرد بدرس أعمال القلوب ، وطائفة بدرس أعمال الجوارح ، بل كان العلم فيهما مجتمعاً وصحيحاً ودقيقاً ، لا يحتاج إلى مزيد . والمتتبع للسنة النبوية يستطيع أن يعد الحالات التي عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم للاستفتاء في أعمال القلوب ، وأغلبها كانت في خوالج تساور قلوب الغزاة والمجاهدين إذ هو الموقف الذى أبيع فيه ما لا يباح في غيره ، كالتبخر بين الصفوف مثلاً .

ولمى بجانب هذه الدقة البالغة في تحديد مشاعر القلوب عند العمل حتى تتفق مع مقصد الشريعة من العمل ، كانت هناك دقة بالغة كذلك في الجوانب الشكلية للشريعة ، ورأسها قوة التمسك بالسنة ، وكراهة البدعة ، حتى لقد قبض عمر بن الخطاب على رافع عقب الصلاة ، وذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه سمعه يقرأ سورة الفرقان على حرف لم يعرفه عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخشية أن تكون البدعة قد أطلت رأسها ، لا سيما وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحذر من البدعة وهو في حال من الإشفاق لا ينساها أحد من أهل عصره رآها أو بلغته ، حتى بلغت فيما أخرجه مسلم عن جابر أنه كان يعلو صوته ، ويحمر عيناه ، ويشد غضبه ، كأنه منذر جيش وهو يقول : « أما بعد . . فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة . وكل بدعة ضلالة ، أنا أولى بكل مؤمن » .

ونظراً لارتباط البدعة بعبادة الهوى ، وارتباط عبادة الهوى بالنفس ثم بالقلب ، فقد ارتبطت البدعة بفساد العقيدة في قوله صلى الله عليه وسلم : « ما تحت ظل السماء من إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع » . وما ذلك إلا لأن كل بدعة إنما هي داء يقضى على سنة من السنن ، حتى لا تبقى إلا البدع التي أطلق العلماء على أصحابها اسم (أهل الأهواء) .

بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم :

ومن دلائل نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودلائل عظمة الأمية في شخصه : أنه كان شامل النظرة ، بعيد مدى الرؤية للأحداث ، صادق التقدير ، حينما بدأ بما ستكون عليه الأمة من بعده ، وقد مرت بنا صورة المجتمع المرائي بعد عصره كما صورها ، وصادق فيها ، والآن نراه بصور مجتمع المبتدعين الذين يقودهم الهوى الباطن من بعده فقال فيما أخرجه أبو داود وأحمد عن معاوية : « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسبعين فرقة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون منها في النار ، وواحدة في الجنة ، وهي ما عليه الجماعة ،

ولأنه سيخرج في أمي أهوام تنجاري بهم الأهواء كما يتجاري الكلب بصاحبه
لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله .

ولم يحدث في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم خطأ في تطبيق السنة .
أو جنوح نحو البدعة إلا في حالات نادرة كانت عن حسن نية أهمها :
ما أراد عثمان بن مظعون أن ينتهجه هو وعدد من أصحابه إذ عزموا على أن
يحيوا مذاكيرهم . وينقطعوا للعبادة . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم
تداركهم ، وبين لهم أنه ينام ويقوم ، ويصوم ويفطر ، ويتزوج النساء ،
وختم بيانه بقوله : « فمن رغب عن سنتي فليس مني » . ومنها ما حدث من
عبد الله بن عمرو بن العاص من ترجيح جانب العبادة وتغليبها على شئون
الحياة . حتى عدل الرسول صلى الله عليه وسلم سلوكه . وكبح جموحه بعد
نقاش بين المعلم الأعظم والتلميذ الصالح .

أما بعد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد عاد الناس إلى الرغبة في الانقطاع
للعبادة ، وابتدعوا طرائق ووسائل للأذكار الجماعية في المساجد عقب الصلوات
وقد شهد الحائتين عبد الله بن مسعود ، وقام على الطائفة الأولى قائلاً : « فمن
للجهاد ، ومن للشغور ، وما أنا بيارح حتى تخرجوا » ، وقال للآخرين :
« إن فعلتم فقد سبقتم سبقاً بعيداً ، أو فقمتم أصحاب محمد علماً » . وقضى
على بذور التثنية قضاء مبرماً .

ولكن قوة الأهواء كانت تابعة لقوة أهواء الحكام في الخروج عن
السمت النبوي في طريقة الحكم ، ومعاملة الشعوب ، حتى لقد جاروا على
الأحكام الشرعية الثابتة ، فقد أخذ الحجاج الجزية من مسلمي خراسان
بعد إسلامهم ، ولم يرفعها إلا عمر بن عبد العزيز . وحدث انحراف تمثل
في بيع الفضة بالفضة بيعاً متفاضلاً في عهد معاوية ، وأرسل عبد الملك
ابن مروان إلى غضيف الثمالي فقال له : يا أبا سليمان إنا قد جمعنا الناس على
أمرين ، فقال : وما هما ؟ قال : رفع الأيدي على المنابر ، والقصاص بعد
الصبح والعصر ، فقال غضيف : أما والله إنها أمثل بدعتكم عندي ، ولست
بمحببكم إلى شيء منها . قال : لم ؟ قال : لأنني سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول : « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة » . فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة :

وإذا تتبعنا جهاد المعمرين من الصحابة كان عمر ، وجابر ، وسعد ابن أبي وقاص ، وأنس بن مالك ، وغيرهم ضد البدع في كتب التراث ، كالتفاق للفريابي ، والزهد لابن حنبل ، والزهد لأبي سعيد بن الأعرابي ، والزهد لابن المبارك وغيرها مما جاء في المراجع متناثراً ، لتبين لنا كيف انطلمست حقائق المصطلحات الإسلامية من معانيها الحقيقية إلى معان سلبية وخطيرة على الإسلام ومسار دعوته .

الفصل في عصر المحاسبي :

وكان الصراع على الحكم ، وشيوع الأهواء . والتلويح بالذهب ، والشهوات الأخرى في عصر بني العباس سبباً رئيسياً في جذب الكثير من العلماء نحو الأضواء ، وفي ظهور الطامعين في حكم دولة الإسلام من الخاقدين وتحكم هؤلاء الطامعون في الخليفة ، وأجبروه على إذكاء نيران فتنة القول بخلق القرآن ، وامتحان العلماء فيها . وجلد إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، وأعلنت المحرمات ، وعطلت الحدود إلا في الحالات التي تخدم السلطة الحاكمة وأصبحت أعمال الآخرة تقصد للدنيا . حتى لقد وضع بعض العلماء أحاديث مكدوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم خدمة لوى السلطان .

وكان العصر عصر استكشاف لأبعاد الشريعة وأعماقها في صورة اجتهاد من أهل الاجتهاد لتقنين الشريعة حسب تطور الحياة ، ولوضع الأصول الفقهية التي تصبح أساساً للأحكام المستقبلية التي تواجه الحياة في مراحل تطورها ، واجتذب هذا العمل الضخم طائفة من كبار العلماء العاملين السائرين على محجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والجامعين لصحة العمل في القلب والجوارح على السواء ، وأخصهم أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وتلاميذهم وسفيان الثوري وعبد الله بن المبارك وأمثالهم . ولهذا لم يكن هناك متسع أمام هؤلاء العلماء ليدونوا فقه أعمال القلوب إلى جانب فقه أعمال الجوارح . وكان هذا الفراغ في الدراسة ، والذي لم يدون من علمه إلا شذرات

من الحكم الجامعة نطق بها الزهاد الأوائل مثل داود الطائي ، والفضيل ابن عياض ، ووكيع بن الجراح ، وأبي إسحاق الفزاري ، وأمثالهم من أهل التقى والورع ، كان هذا الفراغ إلى جانب الشهوات المبدولة سبباً في تدهور وعي القلوب ، حتى شاع الجهل بأعمال القلوب . لولا ظهور طوائف من الزهاد اتخذوا لأنفسهم مدارس لنشر وعي القلوب ، ولكنهم تكلموا في المقامات ، وتشددوا في الزهد في مواجهة الترف ، حتى خلف من بعدهم خلف بذلوا جهودهم في أعمال القلوب ، وأهملوا أعمال الجوارح ، وعالج الخلف هذا الإهمال بمخالفات صريحة للإسلام تركزت حول أداء هؤلاء الفرائض في الكعبة وهم يقيمون في بغداد ، أو أن مخاطبة الملائكة والمكاشفات السرية بين العلماء وبين الله تشغلهم عما تعارف عليه العامة من عمل الجوارح ، أو من التدقيق في استيفائها من الناحية الشكلية .

وباختصار : . غلب على الناس الكذب في العمل والقول الأمر الذي دفع المحاسبي إلى وضع الحق في نصابه في أعمال القلوب وأعمال الجوارح على السواء لأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي الفسيح ، فكان مدرسة متميزة تعنى باستكشاف النفس الإنسانية ودراسة حركاتها ، ووصف أمراضها وتحديد عناصر علاجها إلى جانب نشاطه في الفقه الإسلامي والحديث وعلم الكلام ، والرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق في عصره من حيث كانت المدرسة الثانية للسنة بزعامة الإمام أحمد بن حنبل لا تعنى بتدوين الدراسات النفسية . بل عنيت بالفقه والحديث والسلوك العملي دون زيادة على ذلك .

وإلى جانب الحركة الفقهية والحركة السلوكية كان هناك جمع من العلماء يبحثون الأحكام الشرعية التي تحفظ المسلم من أكل الحرام بعد أن قارف المحرمات الأخرى ، وقد جمع المحاسبي من هذه الآراء مجموعة تلقى ضوءاً قوياً على اضطراب العصر ، وحاجته إلى تدوين قواعد السلوك الصحيح . ويقول المحاسبي في هذا الصدد : « وقد تكلم طوائف من الفرق بمذاهب في المجانية ، وصفاء المطعم والملبس . يختلفون ويتقاربون ، فمنهم من اختار العزلة عن الأئمة والسلطان وأعوانهم بأعيانهم ، وفرقة جانب كل من اتصل بهم . وهذه الطائفة ركبت الغلو في الدين ، وقال الحسن البصري : إن

المكاسب قد فسدت ، أخذوا منها القوت ، وقال أبو وائل : إن أهل بيت بالكوفة على ماثلتهم رغيف حلال لأهل بيت غرباء ، وطائفة اختارت المباح من الجبال والأودية والرمال من ورق الأثل ، ولقط البدر ، والحشائش التي لها ثمن إذا ادخرت ، فجمعوا منها لصيفهم في شتائهم ، وطائفة اختارت ما ألقته الرياح ، وما ظهر من الحشيش والكلاء على وجه الأرض من كلاء الصحراء إذا اشتد بهم الجوع ، وطائفة اختارت المسألة لأخذ القوت منها كما سأل موسى عند الحاجة . وطائفة بالثغر والشام اختارت أن تجمع اللقاط من وراء الحصادين ، وطائفة اختارت كداليد أو ضرب السيف (وعلى رأسهم إبراهيم بن أدهم) . وطائفة اختارت الرباط ، وهم مجمعون على القتال مع كل أمير بر أو فاجر . . . (المكاسب ٢١١) .

وكان المحاسبي واسع الأفق ، شامل النظرة ، لأنه كان يربط بين منهجه في الإصلاح النفسي والشرعي القائم على الكتاب والسنة وبين استعادة دولة الإسلام مجدها الحق . فقال في صدد كلامه عن سلوك الصحابة : « قد جمعت لهم الطاعة مراداتهم فيها ، على قدر الإقبال عليها ، وأوضحت لهم سبل الرشاد فيها ، فلم يريدوا بما أدركت أيدي الظفر منهم بدلاً : . . وأصبحوا في ذلك توفيقاً من سيدهم ، ومعونة قائمة بالكفاية لهم ، ونحى لطف غير منقطع عنهم . فدام لهم الحال ، وزكت الأعمال ، ولم يجدوا عند ذلك هوى غالباً ، ولا عدواً مطالباً . أمانت العلم بالله أهواءهم ، وغلب لهم أعداءهم . وجمع شملهم ، وأحكم أمرهم ، وكان التوفيق لهم مصاحباً ، ونحى اللطف من الله دائماً ، والتأييد من سيدهم مرشداً » .

كان الخطر الوافد على صميم الإسلام في أعمال القلوب وأعمال الجوارح أقوى من جهود المدارس السلوكية التي ظهرت في مختلف الأقطار ، ولهذا دون المحاسبي آراءه في كتب ، وكأنه كان يدرك أن التيار سوف يجتري العالم الإسلامي فيفرقه بين موجات الضلال الوافد ،

كان يدرك أن العالم الإسلامي سوف يحتاج إلى كتب مدونة في أعمال القلوب ، ولن تجديه المناقشات الشفوية ، ولا الأقوال المتناثرة ، وهو يقول في ذلك : « فجميع الخلق في فنون الطاعات ، وتحذير الباطل في مذاهبه

إذا جمع وألف كان أنشط لحفظه وتفهمه . لمن كان لا ينشط لأن يطلب علمه حتى يجمعه . : . وليس من تفرد بكتاب يقرأه وحده متبثاً فيه ، لا يشغله عنه سبب يقطعه تمكن نازع غيره . لأنه يعرض في المناظرة آفات كبيرة من العجيب بالرأى .

لقد اشتغلت جماعات الصوفية من بعد المحاسبي في طريق امتدادها بالقول في المقامات والمواجيد والكرامات . ثم تطور الحال إلى ظهور أهل الفتوة واختلطوا بالسطار والعيارين . ثم ظهور « القائلرية » التي تطورت عن الملامسية . وأقدم من عرف من شيوخها قطب الدين حيدر التوفي المتوفى عام ٦١٨ هـ . ويقال : إنه أباح لأتباعه تناول الخشيش . وأطلق عليه « مدامة حيدر » . وصار ذلك من تقاليد طريقته مع تقاليد أخرى منها خلق الشعر من الوجه كله وعدم التقيد بالآداب الاجتماعية المعروفة وإهمال الواجبات الشرعية . ولبس جلود الضأن مما جعل التصوف ينزع نحو شكليات غامضة مجرد جذب النفوس .

ثم كان تسلط التصوف النظري الذي كان هدفه في الحقيقة هو احتواء الفلسفات الأجنبية في نطاق الفكر الإسلامي . ولكن سطوة القول في الحقائق لاسيما الحقيقة المحمدية كانت هي الأخرى مصدراً لمناعب فكرية هائلة إذ احتقر الصوفية من هذا النوع علماء الشريعة . وسموهم « علماء الأوراق » أو « علماء السطور » ، وأطلقوا على أنفسهم « علماء الأذواق » أو « علماء الصدور » . الأمر الذي نشأت من أجله عداوة بين الفريقين . ورمى كل فريق صاحبه بالعظائم ، ومضى كل في طريقه . حتى ظهر الغزالي . فحاول الربط بين فقه أعمال القلوب وفقه أعمال الجوارح في كتابه « إحياء علوم الدين » الذي يعتبر امتداداً لمؤلفات المحاسبي . وإحياء لها بعد توسيع مفاهيمها وتعميقها .

ومضى العالم الإسلامي في تجربته المريرة بعد تدهور سلطان دولته ، وتغير الكثير من المفاهيم والمصطلحات الإسلامية . وراح الكثيرون من المسلمين يتلمسون علاج نفوسهم الممزقة في ظلال علم النفس المستورد ، ونسوا أن تراث المحاسبي يشكل مدرسة هائلة لتحليل النفس الناجح والمذيق لا نجد منها في أي مدرسة من مدارس علم النفس الحديث . . الأمر الذي يجعل هذا التراث ضرورة للعالم الإسلامي في بعثه الجديد . ويقظته التي تمثلت أقطار العالم في العصر الحديث .

الإمام المحاسبي

نشأته وحياته :

نشأ الحارث بن أسد في أواسط القرن الثاني الهجري ، وعاش حتى عام ٢٤٣ من الهجرة . وكان أبوه ذا مال كثير ، وكان قلدي المذهب ، أي إنه كان مشغلاً بقضايا الفكر على صورة من الصور ، ولكن ولده ، لم ينشأ تابعاً له ، لا في قضايا الفكر ، ولا في هواية المال ، بل نشأ مستقلاً تماماً تحت لواء الحق الشرعي أينما وجد وحيثما كان . ومن هنا نشأ الحارث مع الصدق في ثوب واحد . فكان الصدق هو الميزان الوحيد الذي توزن به أعماله وحياته وعلمه . لا تخطئه في كل ما يقول وما يعمل . ولا أيما بأثره عنه مؤيدوه ومعارضوه .

وأبرز دلائل صدقه مع الله أنه عاش بعيداً عن والده الذي يقول بالقدر ، وكان اجتهاده قد هداه إلى القول بكفر القدرية ، ولم تقف الأبوة في طريق جهده برأيه في سبيل الله . فتعلق بأبيه عند « باب الطاق » في بغداد ، وصاح به : طلق أي فلانك على دين وهي على دين غيره . وبهذا العمل الجليل تم ولاء الحارث للإسلام ولحق ولو صادم هذا الحق الأب والعشيرة .

ومن دلائل صدق المحاسبي مع الله وحده أنه رفض ميراثه من أبيه ، وبروى أبو القاسم الجنيد : أن الحارث مات أبوه يوم مات وهو في حاجة إلى دائق . وكان أبوه ذا مال كثير ، ولكنه رفض وقال : لا توارث بين أهل ملتين ، لأنه كان يقول بكفر الخوارج . ورغم أن خلاف العلماء حول كفر القدرية يتيح للحارث أن يأخذ بالرأي القائل بعدم كفرهم حتى يحل له ميراثه من أبيه . ولكنه أخذ بالاحتياط الأشد ، وهو في أمس الحاجة إلى المال ليرد عن نفسه غائلة الجوع .

ومن دلائل صدقه الفطري : أنه ضرب المثل الأعلى للشباب في استقلال

الرأى وعدم التبعية الفكرية ، ويبدو هذا الاستقلال الفكرى من ظاهرتين فى حياته العلمية :

أولاهما : أنه ما إن شب وتحرك عقله نحو المعرفة وضع مدارس الفكر ومذاهبه فى عصره أمام عينيه . وأخذ فى فحص كل مدرسة وكل مذهب على حدة ، فلا الخلاف بين الفقهاء ، ولا مخالفة القول للعمل بين الوعاظ والنساک والزهاد والقراء ، ولا أهواء الاعتزال قد أشبعت ميول الحارث ، وملأت عليه الفراغ الذى يشعر به من داخل ذاته ، رغم ما يسود تلك المدارس من مظاهر الجاه ، ونفوذ الكلمة ، والقرب من السلطان ، لأن الحارث كان شخصية صادقة فى تفردھا العجيب بالولاء للإسلام وحده . وأصيب أثناء بحثه عن الجوى الذى يتناسب مع ميوله بأزمة نفسية ، ولكنه احتدى فى النهاية إلى من سماهم بالأخفياء الأتقياء مما يدل على صدقه ، وعزوفه عما تردى فيه العلماء من أوحال الشهرة والجاه . حتى لقد أغرد فى وصاياه فصلاً يتحدث فيه عن العلماء وما يمارسونه من مخجلات فى سبيل الجاه قبل الولاء للعلم وحده.

ثانيهما : أن مذهبه الفقهى مستقل هو الآخر . فليس مقلداً لأحد من الأئمة رغم أن السبكى قد ترجم له فى طبقات الشافعية . وقد فطن الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله إلى استقلاله الفقهى من حديثه عن الموضوع فى كتابه « فهم الصلاة » ، وقال : إنه لا يتفق مع الموضوع عند الأربعة الأئمة بل إنه يحتوى ما قاله الأئمة ويزيد عليه من السنن ما يراه ثابتاً فى السنة ، ويلزم نفسه به مما يدل على أنه مجتهد مستقل الفكر وليس مقلداً .

ونقول : إن حديثه عن أبواب من الفقه لم ترد مستقلة فى كتب الفقه ، واستيعاب أقوال العلماء فيها ، والتعقيب برأيه أو ترجيحه لأحد الآراء ، يدل كذلك على استقلاله الفقهى عن مجال التقليد ، ويظهر ذلك من تبويبه للشهرة ، والحسبة فى إدخال السرور على المسلم ، ونظر الفجأة ، ومقاهب الورع ، والحركة فى طلب الرزق ، وغير ذلك مما لا نجده مجموعات فى باب مستقل من مصادر الفقه الأخرى :

وتروى المصادر أنه حين حضرته الوفاة قال لمن حوله من تلاميذه :
« إن رأيت خيراً ابتسمت لكم ، وإن رأيت غير ذلك عرفتم ذلك فى وجهى »

ورغم أن بعض العقلايين يشكون في مثل هذه الوقائع . فإن روايتها عنه تعطى انطباعاً خاصاً عن الرجل ، وأنه كان لا يدع فرصة يمكن أن يكون منها علم إلا انتزها . فلعله أراد أن يؤكد لتلاميذه سلامة مذهبه من بعده لأنه كما تقول القصة ابتسم لهم وصعدت روحه إلى بارئها .

ومن مظاهر صدق المحاسبي مع ربه ما رواه الجنيد البغدادي إذ قال : اجتاز بي الحارث يوماً وأنا جالس على باب دارنا . وكان كثير الضر من الجوع . ورأيت على وجهه زيادة الضر من ألم الجوع . فقلت : يا عم ، لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا ؟ فقال : أوتفعل ؟ قلت : نعم ، وتسرفني بذلك وتسرفني . فدخلت بين يديه ، وعمدت إلى بيت عمي إذ كان أوسع من بيتنا . وتوجد فيه أطعمة لا يتيسر وجود مثلها عندنا سريعاً . وجئت بمائدة عليها أطعمة فاخرة ، ووضعتها بين يديه . فأخذ لقمة . وأخذ يلوكها لا يزد ردها . ثم قام مسرعاً وما كلمني .

فلما لقيه من الغد قلت : يا عم ، سررتني بالأمس ثم نغصت على . فقال : يا ولدي . أما الفاقة فكانت شديدة ، ولكن بيني وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام مرضياً عنده ارتفعت إلى أنني منه زفرة . فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت .

ولا تفسير لنا لهذه الواقعة إلا أنها دلالة صادقة على صدق الرجل في بيعة نفسه لله ولمرضاته على صورة فريدة لا تنها لأقرانه من العلماء .

حتى طريقته في تأليف كتبه . واستكشاف حاجات النفس الإنسانية تنال على صدقه فيما يكتب .

قال الجنيد : كان الحارث يأتي إلى منزلنا فيقول لي : اخرج معي نصبح : أي نذهب إلى الصحراء ، فأقول له : عزلي أنسي ، ونخرجني إلى وحشة الطريق . ورؤية الشهوات ، فيقول : اخرج معي ولا خوف عليك كم تقول عزلي أنسي ، والله لو أن نصف الخلق قربوا مني ما أنست بقرهم . ولو أن النصف الآخر بعدوا عني ما استوحشت لبعدهم . فأخرج معي . فكان الطريق فارغاً من كل شيء ، فلا نرى شيئاً نكرهه . فلذا انتبها إلى

المكان الذي يجلس فيه بحيث لا يرانا أحد قال : سألني . فأقول : ما عندى سؤال أسألك . فيقول : سألني عما يقع في نفسك . فتتألم على السؤالات . فأسله عنها . فيجيبني عليها للوقت . ثم يمضي إلى بيته فيعملها كتباً .

وهكذا صدق الرجل فصدر في كلامه عن وقائع بعيدة عن التهمين والجزاف ، وكان سابقاً في ابتكار منهج الاستمراء والتجريب .

وقد افتعل الناس نزاعاً وصراعاً بين الإمامين المحاسبي وأحمد بن حنبل . ونحن لا نرى هذا النزاع بهذه الضخامة التي صورها المتأخرون في مصادرهم . فكل ما في الأمر أن ابن حنبل لم يرض عن تجرد المحاسبي للرد على أهل الأهواء في كتب مستقلة . وتروى المصادر أن المحاسبي لما علم بذلك قال : « أنا أتوب مما أغضب على أبا عبد الله » . أما أن يحذر الإمام أحمد من الاستماع للمحاسبي . ويقول : حذروا عن حارث . لا توبة لحارث . فهذا ما يستحيل أن يصدر من الإمام أحمد رجل السنة المدقق ، الذي لا يمكن أن يغلق باب التوبة عن عاص مجاهر بالعصيان : لا سيما وأن المصادر تروى أن الإمام أحمد جلس في بيت إسماعيل السراج تلميذ المحاسبي . وكان المحاسبي قد اجتمع بطلابه هناك . وقد جلس الإمام أحمد بحيث يسمع كلام المحاسبي ولا يراه ، وقال في النهاية : « ما سمعت في الحقائق مثل هذا الرجل . وما رأيت مثل أصحابه معه » .

وكان ما في الأمر فيما نرى أن الحارث قد اندفع يكتب ضد أهل الأهواء ويسقط حججهم . ويدعو للسنة والصواب . وأن الإمام أحمد يرى إهمال شأن أهل الأهواء لنموت دعوتهم ، ولا يرتفع شأنهم بالرد عليهم . وأن الجهود يجب أن تتمجه نحو إحياء السنن ، والدعوة إلى إحيائها بالقدوة ولزوم المنهج الفكري لأهل السنة : وهذا خلاف لا غبار عليه . ولا يمكن أن ينسب من خلاله إلى إمام عظيم كإبن حنبل أن يغلق باب التوبة عن مسلم . فليس هذا القول من صنيعه ولا مذهبه ولا دينه ولا خلقه في شيء :

وتبالغ المصادر في أن غضب الإمام أحمد من الحارث دفعه إلى اغتيال الناس ، ولزوم بيته حتى مات ولم يصل عليه إلا أربعة نفر .

وتلك فرية لا نستطيع تفسيرها إلا بأنها من صنع التلاميذ .. ولنفترض
أن ذلك قد حدث في حياة الإمام أحمد ، فما الذي يدعو المحاسبي إلى الاختفاء
في منزله بعد وفاة الإمام أحمد ، ولماذا يصلي عليه أربعة نفر وقد توفي الإمام
الذي كان يمكن أن يكون له نفوذ بين الناس فيمنعهم من الصلاة عليه ؟
وإن كانت تلك الحلة ليست من خلال أحمد ؟ ولماذا لم يغصب الإمام أحمد
على مدارس التصوف التي زخرت بها بغداد وكان روادها يخلطون في
كلامهم ، ويحجمون بعيداً عن السنة ؟

نعم .. قد نرى أن كلام الحارث المحاسبي ، ونقله الدقيق لأخلاق
العلماء والذسالك والقراء والزهاد يمس في الصميم أخلاق التلاميذ من حلقة الإمام
أحمد . فافتعلوا هذه الضجة حول الرجل . أما الإمام نفسه فقد كان في
سلوكه ودينه مثلاً يحتذى ولا يوجه إليه نقد . ومن ثم تسقط دعوى ثورة
الإمام أحمد على المحاسبي على الصورة التي نراها في المصادر . ويدلنا على ذلك
أن الذهبي روى قصة اختفاء الإمام أحمد لسمع كلام المحاسبي وعقب عليها
بقوله : وهي قصة صحيحة السند لا تقع على قلبي .

شيوخه :

درس المحاسبي علوم الحديث رواية ودراية ، والذين تعلمهم من
من شيوخه في الحديث : سنيد بن داود ، ومحمد بن كناشه ، وعبد الله
ابن بكر السهمي . وزيد بن هارون . ومحمد بن بشار . وروح بن عباد ،
وغيرهم : وأما شيوخه في السلوك فلم يتحدث عن أحدهم منهم ، ولكننا
نستطيع أن ندرك صلة وثيقة بين اتجاه المحاسبي نحو الموت والبكاء وانجاء
أسلافه من الزهاد الذين انجهوا نفس الاتجاه . ومنهم :

١ - صالح المرسى الواعظ المتوفى عام ١٧٢ هـ . وكان كما يقول
أبو نعيم في الحلية : « إذا أخذ في وعظه كأنه رجل ملغور ، يذعرك أمره
عن حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى » .

٢ - مالك بن دينار . وكان زاهدا واعظا ، وكان يرى أن الحزن
وبكاء ضروريان للقلب لأن القلب « إذا لم يحزن خرب ، كما أن البيت إذا
لم يسكن خرب » .

٣ - الحسن البصري . سيد الزهاد والتابعين : وروى عنه الجاحظ أنه كان « إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه . وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له » ، وروى عنه ابن الجوزي قوله : « طول الحزن في الدنيا تلقيح العمل الصالح » ، وكان يعلن الحزن بقوله : « إن العبد بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما يصيب فيه من المهالك » . ويقول : « لا يؤمن أحد بهذا القرآن إلا حزن وذبل ، وإلا نصب وإلا ذاب ، وإلا تعب » .

٤ - داود الطائي . توفي عام ١٦٥ هـ - وكان رجلاً زاهداً منزهلاً يدعو إلى العزلة ، ويقول فيما يروى ابن الجوزي : « صم الدنيا ، واجعل فطرك الموت ، فر من الناس فرارك من الأسد . غير طاعن عليهم ، ولا تارك لجماعتهم » .

هؤلاء نماذج من أئروا في حياة المحاسبي السلوكية ، إذ يتفق معهم في لزوم الحزن الدائم لعمران القلب وصفائه ، وفي لزوم عزلة الناس بالقلب ، ومخالطتهم بالجسد ، مع لزوم الجماعة وحب الخير لهم . والسعى في مصالحهم ولكن مع اليأس منهم في كل أمور الدنيا .

ولم يكن المحاسبي ممن يهرون بمظاهر الزهد على الرجل فيحسن فيه رأيه . ولكنه كان نقاداً طالما رمى الكثير من الصوفية بالغلظة والجهل بالسنن . وأذرى على (عبدك الصوفي) وحذر من أوهامه ، ووصفه بأنه (مخلط) . وعبدك هذا اسمه عبد الكريم كما يقول المقدسي في كتابه «الأنساب» وروى المالطي في كتابه «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع» أن هذا الرجل - كما يقول المحاسبي في كتاب «المكاسب» كان يقول هو وفرقة : «إن الدنيا كلها حرام محرم ، لا يحل الأخذ منها إلا القوت من حيث ذهب أئمة العدل ، ولا تل الدنيا إلا بإمام عادل ، وإلا فهي حرام ، ومعاملة أهل حرام ، فحل لك أن تأخذ القوت من الحرام من حيث كان » . ويقول المالطي : «إنه كان على رأس فرقة من الزنادقة» وقد وصفه المحاسبي بأنه «لبس على الأمة أمرها» .

ورغم أن الأئمة قد اشتغلوا بمسألة اختلاط الحلال بالحرام . حتى قال
الأوزاعي : « فاض البحر . فليس إلا التقليل والفقير . لأن الأشياء تقاربت »
فإن المحاسبي يرى في هذا الموضوع أنه « ينبغي لأهل العناية بالدين ، ومن
كان منفردا لا عيال له ، ولا يحتاج إلى أحد في كسبه ، أن يطلب الوسيلة
والسبق إلى رضوانه ، بالتقرب في إصلاح الكسرة ، وإن كان في ذلك
حملان على نفسه ، ومكروه وثقل على بدنه ، فإذا ذلك أعون على مباشرة
الطاعة » . وكان يوجب الحركة في طلب العيش : ويستند إلى السنن والآثار
ويقول : « آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين قيس بن الربيع وعبد الرحمن
ابن عوف فقال قيس لعبد الرحمن : هذا شطر مالي ، ولي امرأتان أنزل لك
عن واحدة . وكان مال قيس المال الصامت الذي يرغب فيه . فقال عبد الرحمن
لا حاجة لي بذلك . دلني على السوق . فأثر عبد الرحمن الكسب على مال
طيب هو مال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شك في
أمره ، وفي النفس منه شبهة ، عرض عليه من غير مسألة ولا إشراف من
نفس . »

عبد القادر أحمد عطا

مؤلفات المحاسبى

- ١ - الرعايا لحقوق الله : نشرته المستشرقة مرجريت سميث فى لندن سنة ١٩٤٠ . وأعيد طبعه بالقاهرة عام ١٩٦٦ . ثم طبع ثالثاً بتحقيق عبد القادر أحمد عطا بالقاهرة عام ١٩٧٠ . وأعيد طبعه مرة أخرى بتحقيق عبد القادر عطا بدار الكتب العلمية ببيروت عام ١٩٨٥ .
- ٢ - آداب النفوس : طبع ببيروت ، دار الجليل ، بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .
- ٣ - الوصايا : طبع بالقاهرة عام ١٩٦٥ بتحقيق عبد القادر أحمد عطا وأعيد طبعه بدار الكتب العلمية ببيروت عام ١٩٨٥ .
- ٤ - المسائل فى أعمال القلوب والجوارح : وهو مكون من : المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ، والمسائل فى الزهد وغيره ، وكتاب المكاسب وكتاب العقل . حققه عبد القادر أحمد عطا ونشره عام ١٩٦٩ ، وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٨٥ .
- ٥ - فهم القرآن : حققه حسن القوتلى ونشره عام ١٩٦٨ م .
- ٦ - كتاب العلم : حققه محمد العابد مزالى ونشره فى تونس عام ١٩٧٥ .
- ٧ - القصد والرجوع إلى الله : حققه عبد القادر أحمد عطا ونشره بالقاهرة عام ١٩٨٠ . وسيعاد طبعه مرة أخرى .
- ٨ - فهم الصلاة : مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن جابر الله ، وقد قام بتحقيقه عبد القادر أحمد عطا ، وهو تحت الطبع .
- ٩ - بدء من أناب إلى الله : نشره المستشرق ريتز عام ١٩٣٥ م ، وأعيد طبعه بالقاهرة تحت اسم التوبة بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .
- ١٠ - التوهم : نشره المستشرق آربرى بالقاهرة فى لجنة الترجمة والنشر سنة ١٩٣٧
- ١١ - الخلوة والتنقل فى العبادة ودرجات العابدين : نشره الأب أغناطيوس عبده خليفة بمجلة المشرق عام ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ .

- ١٢ - رسالة المسترشدين : حققه عبد الفتاح أبو غدة . ونشرته مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب سنة ١٩٦٤ .
- ١٣ - النصيحة للطالبين : وهو ما زال مخطوطاً شهيداً على ٣٣١٩ .
- ١٤ - معاتبة النفوس : وهو الكتاب الذى بين أيدينا .
- ١٥ - المراقبة والمحاسبة : تحت الطبع لنا .
- ١٦ - مختصر المعاني : وهو مخطوط - البندال ١١٦٧ .
- ١٧ - المعرفة : وهو تحت الطبع لنا .
- ١٨ - الرد على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجوا بأغنياء الصحابة : مخطوط لالى بالآستانة رقم ٣٦١٦ / ٢٠ .
- ١٩ - الخصال العشرة التى جربها أهل المحاسبة : مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤١٨٤ تصوف عن نسخة مكتبة برلين .
- ٢٠ - التنبيه على أعمال القلوب والجوارح : مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن نسخة جاز الله بالآستانة .
- ٢١ - رسالة التصوف : تحت الطبع لنا .
- ٢٢ - أحكام التوبة : تحت الطبع لنا .
- ٢٣ - فصل من كتاب العظمة : مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٠٦٤ تصوف عن جاز الله بالآستانة .
- ٢٤ - محاسبة النفوس : مخطوط بالمتحف البريطانى بلندن ١٢٤٤ .
- ٢٥ - رسالة فى الأخلاق : مفقود .
- ٢٦ - أخلاق الحكم : مفقود . وذكره المحاسنى فى أعمال القلوب والجوارح ص ١٥٧ ،
- ٢٧ - التفكير والاعتبار : مفقود . وذكره ابن تديم فى الفهرست ص ٢٦١ ،
- ٢٨ - كتاب السماء : مفقود ، وذكره ابن حجر فى التهذيب ٢ / ١٣٥ ،
- ٢٩ - كتاب الغيبة : مفقود ، وذكر فى فهرست ابن خير ص ٢٧٢
- ٣٠ - فهم السنن : مفقود ، وذكره الزركشى فى البرهان (١ / ٣٣٧)

كتاب معاتبة النفس ومنهج التحقيق

وصف المخطوطة :

هي رسالة صغيرة مودعة بخزانة المكتبة الأزهرية بالقاهرة تحت رقم (١٠٣٩ . ٢٢٠٩ مجاميع) : والمخطوطة سيئة للغاية من حيث الخط ، وتصحيف النسخ . وقد أثرت بها الرطوبة تأثيراً بالغاً : ولم نعثر على غيرها من المخطوطات سوى نسخة منها ولكنها ناقصة وهي محفوظة بمكتبة المرحوم ، عبدالقادر أحمر عطا .

والمخطوطة تتألف من ٢٠ ورقة من القطع الصغير ، ومسطرة بها (١٧) سطر . ويتألف السطر من (١٠) كلمات .

أما نسخة المرحوم عبدالقادر عطا فلم يبق منها سوى عشرة ورقات ولذلك اعتمدنا على النسخة الكاملة . مع الاستعانة بهذه النسخة في تصحيح بعض الكلمات .

منهج المؤلف في الكتاب :

على الرغم من صغر الرسالة إلا أنها حافلة بالمعاني السامية والأسس التي يقوم عليها رد المسلم المنحرف عن انحرافه . وإقامته على سواء السبيل من جديد .

وقد ألف الحماسي مثلها كتاب (التوهم) . ولكنه عبارة عن تذكير بالجنة والنار ، وبالنعم والعذاب . لعل المسلم أن يشوب إلى ربه من خلاله .

أما هذا الكتاب فيختلف عن التوهم فيما يلي :

٢ - تحديد وسائل اليقظة في قلب المؤمن ، حتى يقلع عن نسيان الذي أراده ورده إلى الإيمان بالقدر ، وتنبيهه إلى اطلاع الله على قلبه وجوارحه ، ومنه انبعث في قلبه المراقبة مع الإيمان بالقدر فقد هدى إلى الصراط المستقيم

٢ - التحذير من قسوة القلب أن تكون مقدمة لطرد العبد عن باب الله ،
وبيان مافى هذا الطرد من بلاء لاحق بالإنسان .

٣ - التحذير من سلب النعم بعد العطاء ، ومن غضب الله بعد الرضا ،
فالعبد لا يطيق غضب الله ، ولا يصمد له ، ويورد لذلك احتجاجاً منطقياً
مؤثراً أبلغ الأثر .

٤ - وعلى عادته ينصح المسلم بدوام ذكر الموت ، والخوف من سوء
الخالطة ، ثم يهيب به أن يعود إلى ربه ، ويقارن بين النعيم والعذاب فى سلاسة
نابعة من قلبه تليث أن تصل إلى قلب المسلم سريعاً .

وقد أهاب بالإنسان فى هذا الكتاب أن ينتبه إلى أمر له فيه أمل . ذلك
أنه يهيب به أن يفرغ إلى الله . ويدعى التضرع على بابه ، والبكاء والعويل
على خطاياها ، ويستغيثه ويسترحمه ، ويذكر أن الله أكرم من أن يسمع لعبد
أن يدعو ثم لا يجيبه ، مادام الدعاء صادراً من القلب . مشفوعاً بالخضوع
واللموع بين يديه .

منهج التحقيق :

١ - قمت بنسخ الكتاب من مخطوطته الوحيدة ، ومراجعتة عليها مرة أخرى .

٢ - قمت بتصحيح الأخطاء اللغوية وإضافة بعض الكلمات لتوضيح
المعنى وقد نهيت فى الهامش .

٣ - قمت بمراجعة آيات القرآن الكريم على المصحف . وتخريجها
وإثبات أرقامها من سورها فى الهامش .

٤ - قمت بتخريج الأحاديث الواردة على الكتب المعتمدة .

٥ - قمت بشرح الكلمات الغامضة والجمل التى تمحض أسلوبها .

٦ - التعليق على بعض المواضع ، وآثرت الاختصار على التقابل منها حتى
لا يتضخم الكتاب .

٧ - جاء الكتاب بدون عناوين لذلك رأيت أن أضع له عناوين حتى
يسهل على القارئ استيعاب الفكرة .

٨ - قدمت الكتاب بمعالجة للتعرف بالمؤلف وكتبه .

والله أسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن يتفجع به المسلمين ،
وأن يجعله في كفة الحسنات عنده (يوم لا ينزى الله النبي والذين آمنوا معه ،
نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا آتِنا نورنا ، وأغفر لنا
إنك على كل شيء قدير : يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين
أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ،
ذلك هو الفوز العظيم) . والحمد لله رب العالمين .

الأهرام في ٤ مايو سنة ١٩٨٥ م

١٤ شعبان سنة ١٤٠٥ هـ

محمد عبد القادر عطا

مَحَاتِبُ النَّفْسِ

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا كريم

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رضي الله عنه : الحمد لله المستحمد لعباده . بلا فاقة^(١) إليهم ، ولا حاجة . وكل مستحمد سواه فللفاقة إلى من استحمد إليه ، فالله هو الغني الحميد ، لا يستأهل هذا الوصف غيره ، ولا يستحق سواه . وكذلك يقول في تنزيهه : «... هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»^(٢) .

فأعظم نعمة يستحمد بها إلى خلقه : ما من به على أوليائه من معرفته ، فزينه في قلوبهم ، وحبيه إليهم ، فضلاً من الله ونعمة ، وكره إليهم الكفر والفسوق ، والعصيان .

فجمع هذان^(٣) جميع مكارم الأخلاق ، ومجانبة دناءة

(١) الفاقة : الفقر والحاجة .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٦ .

(٣) في الأصل : هاتان . والمراد : حب الإيمان ، وكراهية الكفر .

الأخلاق ، فطهرهم من رجز^(١) كل شر . ومنعهم من
خسيسة دنياهم ، فلأعز لهم أنفسهم ، وأغناهم به عن خلقه
أجمعين .

فعليه يتوكلون ، ومنه يحذرون ، ورضاه ورحمته
يرجون ، وقطعوا أعمارهم بطاعته ، والأمن في جواره .
وما كان ذلك إلا بباطفه ، رحمة بهم وامتناناً ، فله
الحمد على ما وهب ولطف .

* * *

(١) الرجز والرجس : الدنائة والنجس .

الظهر والبطن ... والحد و المطلع

أَمَّا مَا سَأَلْتُ عَنْهُ مِنْ مَعْنَى قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ :
« لِكُلِّ آيَةٍ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ ، وَحَدٌّ وَمَطْلَعٌ »^(١) .

فَقَدْ رَوَى عَنْ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَقَالَ : يَعْنِي : « مَطْلَعٌ قَوْمٌ يَعْمَلُونَ بِهِ » .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي
تَفْسِيرِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَعْنَى ذَلِكَ - مَا أَجِيبُكَ بِهِ :
أَمَّا ظَهْرُهَا : فَتَلَاوتُهَا .

أَمَّا بَطْنُهَا : فَتَأْوِيلُهَا^(٢) .

(١) قَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ : أَخْرَجَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ ،
مِنْ حَيْثُ ابْنُ مَسْعُودٍ يَنْحُوهُ .

وَيَقُولُ صَاحِبُ الْإِحْيَاءِ : « أَنَّ الْعُلُومَ كُلَّهَا دَاخِلَةٌ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَصِفَاتِهِ ، وَفِي الْقُرْآنِ شَرْحُ ذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ : وَهَذِهِ الْعُلُومُ لَا نِهَايَةَ لَهَا ،
وَفِي الْقُرْآنِ إِشَارَةٌ إِلَى مُجْمَعِهَا : وَالْمَقَامَاتُ فِي التَّعَمُّقِ فِي تَفْصِيلِهِ رَاجِعٌ إِلَى فَهْمِ
الْقُرْآنِ ، وَبِجُرْدِ التَّفْسِيرِ لَا يَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ ، بَلْ كُلُّ مَا أَشْكَلُ فِيهِ عَلَى النَّظَارِ
وَاخْتَلَفَ فِيهِ الْخَلَائِقُ فِي التَّنْظِيرَاتِ الْمُعْقُولَاتِ ، فَفِي الْقُرْآنِ إِلَيْهِ رُمُوزٌ
وَدَّلَالَاتٌ عَلَيْهِ يَخْتَصُّ أَهْلُ الْفَهْمِ بِإِدْرَاكِهَا .

أَنْظُرْ : (إَحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ ١ / ٢٦٠) .

(٢) يَبْدُو أَنَّ الْحَاسِبِيَّ يَقْصِدُ بِالتَّأْوِيلِ : التَّفْسِيرَ . وَبِهِ قَالَ الْفَيْرُوزِيَّابَادِيُّ -

وأما حدها : فمُنْتَهَى علمها^(١) .

وأما مطلعها : فمَجَاوِزَةٌ حدها بالغلو والتعمق^(٢)

ومن ذلك قول عبد الله : « لا تطلعوأ حدود الله » .
وذكر الحديث : « إن الجنة حفت بالمكاره ، والنار
حفت بالشهوات »^(٣) . فقال : ومن أطلع الحجاب واقع
ما وراءه .

حيث قال عن التفسير : هو الإبانة وكشف المغطى (القاموس المحيط ٢ / ١١٠)
وقرر في النهاية أن التفسير والتأويل شيء واحد (٣ / ٣٣١) ، وقال
ابن فارس : تأويل الكلام « عاقبته ، وما يؤول إليه » (مقاييس اللغة
١ / ١٦٢) . وقال الطبرسي : « التفسير : كشف معنى اللفظ وإظهاره .
والتأويل : رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر » (مجمع البيان ١ / ٨٢) .
(١) وهنا فرق الله تعالى بين الكاذبين والصادقين ممن تلاها ، أو من
صادق بلغ منتهى فهمها ، لأن أقل الصديق من المرید المؤمن بعد الإيمان بالآية
أن يفهمها عن ربه ، وإن لم يعمل بها . وإنما قصر الناس عن فهمها
لقلة تعظيمهم لقائلها : (المسائل في أعمال القلوب والجوارح ، للمحاسبى ،
تحقيق عبد القادر أحمد عطا ص ١١٦) .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : « وتلك حدود الله فلا تعتدوها » .

(٣) حديث : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » ،
أخرجه : مسلم في صحيحه ، حديث ١ من كتاب الجنة ، وأبو داود في سننه
الباب ٢٢ من كتاب السنة والترمذى في سننه الباب ٢١ من كتاب الجنة ،
والنسائى في سننه الباب ٣ من كتاب الإيمان ، والدارمى في سننه ، الباب
١١٧ من كتاب الرقاق ، وأحمد بن حنبل في مسنده ٢ ، ٢٦٠ ، ٣٣٣ ، ٣٥٤ ،
٣٨٠ ، ٣ / ١٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٤ ، وابن المبارك في الزهد ص ٢٢٩ .

يعنى : من جاوز حجاب النار وقع فيها . لأن حجابها الشهوات ، وحجاب الجنة المكروهات^(١)
فمن تجاوز المكروه^(٢) دخل الجنة ، ومن أثر الشهوات دخل النار ، فعلم أن المطلع هو المجاوزة^(٣)
وكذلك التقصير في فهم آلائه يدعو إلى التقصير في شكرها^(٤) ، لأن الله تعالى طلب منا أن نكون دون الغلو وفوق التقصير .

* * *

(١) المكروه هناك ، والمكروهات هنا . يعنى : ما ثقل على النفس فعله من الطاعات ، أو تركه من الشهوات . لا المكروهات الشرعية التي هي قربة من الحرام .

(٢) تجاوز المكروه . يعنى : لم يعبأ بكراهية النفس للعمل وثقله عليها ، فأقدم عليها مجاهداً لها من المكروه . ومن خلقه الله للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات .

انظر : (الفرائد لابن القيم . المنيرية طبعة ١٣٤٤ ص ٣٢) .

(٣) في الأصل : إلى التقصير في فهمها ، واختارنا ما على هامش نسخة خاصة .

(٤) إلا أن يعفو الله عز وجل ، لأن الله تعالى أمر عباده أن يتحملوا المكروه حتى يدخلوا الجنة . وأمرهم بترك الشهوات حتى ينجوا من النار . وقال ابن القيم من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه .

الأمن والغفلة

وقال : ثلاث خلال تلزمها قلبك :

الخلقة الأولى : الإيمان بأن المقدور يأتي . وأن ما لم يقدر لا تناله ، والغنى بالله .

فمن ألزم قلبه ذلك أورث قلبه ثلاث خصال :

أحدها : أن يأسن قلبه أن يفوته ما قدر له .

والثانية : أن ييأس أن ينال ما لم يقدر له .

فمن ألزم قلبه أن رزقه لا يفوته ، والإيأس أن ينال

ما لم يقدر له استغنى . وقل همه وخضوعه للخلق ، والمدايرة

لهم . لأن ينال منهم منفعة^(١) ، فهذا هو المستغنى عن

(١) صنف المحاسب كتاباً سماه « المكاسب » تحدث فيه عن التوكل على الله في باب مستقل قائلاً : « إن المؤمنين في جملتهم يسلم لهم عقد الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه . فقد أقسم جل ثناؤه بنفسه أن قسم الأرزاق بين الخلق ، وأمضى الضمان بالكفاية لهم . فكان على الخلق تصديقه فيما أخبر وأقسم . فمن صدق في ذلك . كان بتصديقه وإيمانه مؤمناً متوكلاً ، ومن كذب أو شك ، كان معانداً كافراً ، فالؤمنون موصوفون بالتوكل على الله تعالى . فإذا عرض له شيء مما يكره الله عز وجل ، ذكر النظر ، وخاف المقت إن ركن إلى ذلك . وإن عرض له ما فيه نقص — وإن لم يكن محرماً —

غير الله^(١) .

والخلة الثانية : المحذر من الله تعالى أن يغفل فيزل^(٢) ،
فيسقط من عينه ، لأن المحذر يوقظه ، والتيقظ يذكره ،
والذكر ينبيهه ، حتى يراقب مليكه .

=استحى من الله أن يراه مقصراً عما يحب مولاه مع ما عقد استودعه من العلم ،
وعرفه من عظيم قدره ، وكبر يائه جل جلاله .

انظر « المكاسب » من ملحقات « أعمال القلوب والجوارح » تحقيق
عبد القادر عطا ص ١٨٢ ، و « الأمد الأقصى » للدبوسي من تحقيقنا ، بدار
الكتب العلمية ببيروت .

(١) وهذا الاستغناء عن غير الله هو الخصلة الثالثة التي يرثها من ألزم
قلبه الخلة الأولى .

(٢) تحدث المحاسبي عن الغفلة في باب مستقل في كتابه « الرعاية
لحقوق الله » وقرر أن الغفلة غفلتان :

الأولى : غفلة عن نسيان وزوال ذكر ، وهي غفلة الخائفين ، وهي
أيسر الغفلتين ، لأن أقل الناس نسياناً لأسباب دينه أشدهم عناية بالقيام بحق
ربه وأشدّهم عناية بذلك أشدهم تعظيماً لربه ، وأشدّهم تعظيماً لربه أكثرهم
معرفة بتعظيم قدر ربه .

والغفلة الثانية : وهي أعظم الغفلتين ، وهي الغفلة التي معها الذكر وزوال
النسيان ، ولم يغفل لأنه لم يعلم ، بل العلم معه قائم أن ذلك لا يرضى الله
عز وجل ، وسمى فعله غفلة لأنه غفل عن تعظيم قدر من يعصى . وقدر
شدة عقوبته ، ولذلك سمي غافلاً ، لأن قايه محبوب غافل عن الآخرة .
وهذه الغفلة تكون في المؤمن والكافر مع اختلافهما في المعنى .

انظر : « الرعاية لحقوق الله » تحقيق عبد القادر عطا ص ٩٤ ،
و « أعمال القلوب والجوارح » ص ١٥٥ وما بعدها .

والخلة الثالثة : ذكر اطلاع الله عليه في ضميره ،
وجوارحه ، فإن ذلك يورثه الحياة من الله عز وجل .
فإن عرض له شيء كرهه ربه ذكر النظر ، وخاف
المقت إن ركن إلى ذلك .

وإن عرض له ما فيه التقصير من الفضل^(١) - وإن
لم يكن محرماً - استحيى^(٢) من الله أن يراه مع ما استودعه
من العلم ، وعرفه من عظيم قدرته وكبريائه ، مقصراً
عن محبته .

وجملة ذلك : أن تغدو إلى سوقك أو غيرها ، فتلزم
قلبك ثلاثاً :

اليقين ، والحذر ، والنظر .

فباليقين يحذر ، وبالحذر تيقظ ، وبذكر النظر ،
يستحي من الناظر الأعلى ، جل ثناؤه تعالى .

(١) تحدث الإمام المحاسبي في باب مستقل في كتابه « آداب النفوس »
عن « العدل والفضل » ، في فرائض القلوب والجوارح ، وقرر أن العدل
هو الفرائض والواجبات التي لا يسع المؤمن تركها من أعمال القلوب ،
والجوارح ، والفضل ما لم يفرض فعله ولم يحرم ارتكابه . ولكنه من
الآداب مثل سنن العبادات ، والزهد في الدنيا ، وما أشبه ذلك .
انظر : « آداب النفوس » - تحقيق عبد القادر عطا - دار الجيل
بليمان .

(٢) في الأصل : استحا ، خطأ من الناسخ .

احذر قسوة القلب

وقال : ينبغى للمؤمن إذا رأى القسوة من الرين ^(١) على قلبه عقوبة له على ذنبه : أن يخاف أن يكون الله سبحانه لما حجب قلبه عنه بالرین والقسوة أن يحجبه غداً عن النظر إليه .

لأنه أخبر أنه عاقب من أخرجه عن ولايته بحجب قلبه عنه في الدنيا ، وحجب بصره أن ينظر في الآخرة إلى جلاله ^(٢) ، فقال تبارك وتعالى : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » ^(٣) . إحداهما تتلو الأخرى ، حجاباً معاً في التلاوة : حجاب القلب في الدنيا ، وحجاب العين عن النظر إلى الله في الآخرة ^(٤) .

(١) في الأصل : الران ، وما أوردناه أوضح ، والرین والران : سواد القلب ، وظلام بصيرته من أثر الذنوب .

(٢) هذا بيان لمذهب المحاسبي في موضوع رؤية الله تعالى ، وأنها في الدنيا ببصيرة القلب ، وفي الآخرة بالبصر ، ولكن البصر في الآخرة يقع على صفات الجلال ، لا على الذات ، كما أن بصيرة القلب هي الأخرى بطبيعتها لا تقع على الذات .

(٣) سورة المطففين الآية ١٤ ، ١٥ .

(٤) أى أنه حجب قلوبهم عنه في الدنيا ، وحجب أبصارهم عن النظر إليه في الآخرة لينزلها جميعاً ، أحدهما يتلو الآخر ليس بينهما معنى ثالث .

فإن اعترض للعبد خاطر من الشيطان ليقطعه عن
الخوف من الله عز وجل فليحذر أن تحل به هاتان
العقوبتان^(١) .

فإن قال الشيطان : إنما أنزلها الله في الكافرين .

فليرد عليه : وإن كان قد أنزلها في الكافرين ، فإن
الله لم يؤمن منها كثيراً من المؤمنين . ورثي أحدهما ،
قد حل بكثير من المسلمين^(٢) .

وقد حذر الله المؤمنين أن يعصوه فيعاقبهم بما يعاقب
به الكافرين فقال : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »^(٣) .
يعنى : لأعذبكم بها معهم .

وقد ذكر الكافرين بإيجابه^(٤) ، ثم أخبر أنه يريد
بذلك تخويف عباده المؤمنين ، فقال : « قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ
مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ
الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنْ

(١) في الأصل : هاتين العقوبتين خطأ ؛

(٢) يريد : الرين على القلب ، والتسوية الناشئة منه ؛

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣١ .

(٤) يعنى : لإيجابه النار لهم .

النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ»^(١). فحذرهم أن يعذبهم بالنار التي يعذب بها الكافرين .
وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى فى السماء مخيلة^(٢) أكثر الاختلاف بالدخول والخروج ، فأقول : يا رسول الله ، لم تكثّر الدخول والخروج ؟ فيقول : « وما يؤمننى أن أكون كما قال الله عز وجل : (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) »^(٣) .
وقال عمر رضى الله عنه : « أما ترونى أبصر رقيق العيش » ، وقال أيضا لغلّامه : « انضح العصيدة بالماء ، فإنه يكسر حرارة الزيت ، فإني سمعت الله عز وجل غير أقواما فقال : (... أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ...) »^(٤) .
فحذر من وقع فى الشهوات أن يقع به ما عاقب الكافرين ، ولم يؤمن منه المؤمنين .
فعلى المؤمنين أن يخافوا أن يجمع الله بينهم وبين الكافرين فى الخزى والعذاب .

(١) سورة الزمر الآية ١٤-١٦ . (٢) المخيلة . السحاب المؤذن بالمطر ؛

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٤ : والحديث أخرجه أحمد بن حنبل

فى الزهد (٧٥) .

(٤) سورة الأحقاف الآية ٢٠ .

احذر السلب بعد العطاء

وقال : العجب كل العجب من عبد آمن بربه ، وأيقن
بشدة عقوبته ، وأليم عذابه . وعرف قدر ثوابه وكرامته ،
كيف تقر عينه . أو يزایل الحزن والوجل قلبه . وهو
يرى نفسه كل يوم فى إدبار ؟

وأعظم من ذلك : الأمن من إبعاد الله عز وجل له عن قربهِ .
فإن كان عبداً قد عوده الله قبل ذلك التوفيق ،
والعصمة عن معصيته ، وفرغ قلبه عن الاشتغال بالدنيا^(١)
وألزم قلبه التعظيم عند ذكره ، وشدة الفزع منه عند
نسيانه ، فسلب منه ذلك ، وابتلاه بأضداده ، باتصال
الغفلة ، وكثرة النسيان ، والتغميض عن تضييع الحقائق ،
حتى صار مباعدًا عنه ، مطرودًا عن قربهِ ، حيرانا سكرانا ،
يطلب الرجوع فما يجعل إليه بالتوفيق سبيلًا^(٢) .

وكيف لا يتعجب المتعجبون ممن أنزله الله بهذه المنزلة

(١) ليس المراد أن يكون الإنسان سلبياً فى عمران الدنيا ، بل يكون
عاملاً بكل قوته ، ولكنه غير متعلق القلب بمتاع الدنيا ، بل يستوى عنده
أن يتألم منه وأن يهيبه كله فى سبيل الله .

(٢) فى الأصل : فيما يجعل به إليه بالتوفيق سبيلاً ، وهو تحريف من الناسخ ،

من الهوان والمذلة ، والإقصاء والبعد ، بعد العز والكرامة ،
والإقبال عليه ، وسرعة الإجابة لدعوته ؟

بل كان الرب سبحانه وتعالى يسارع إلى محبته^(١) من
غير دعاء ولا طلب منه إليه ، وهو بعد ذلك قرير العين
مسرور القلب ، مشغول بطلب الدنيا ، لا يكثرث لما فقد ،
ولا يحزن إلى ما سلب ، ولا يعتبر بالرجوع عما عليه عوقب .
إنما حزنه خطرات قلب لا تلبث .. وقصر عنه بقلب مشغول .
فكيف لا يدوم الحزن ، ويشغل قلبه بالله عند
الطلب ، وهو عن الله محجوب ، ومن القرب منه مطرود ،
قد حل منه بالحرمان ، وقد عاقبه بأن سلبه كرامة
المواهب ، وعز العناية ، فصار مولياً عنه بعد الإقبال عليه
مشتغلاً بغير الشغل بربه .

وأعظم من ذلك أنه لا يشتد حزنه أن يكون الله سلبه
كراماته ، وعاقبه بإبعاده ، لغضب منه ، وسقوط من عينه .
فالعجب كل العجب ممن كانت هذه منزلته !! نعوذ
بالله من حلول عقوباته ، ونسأله النقلة إلى ما يحب ويرضى
بتوبة يطهرنا بها من كل ما يكره ، والإقبال عليه . والشغل
عن الدنيا وأهلها ، ونسأله أن يجعل ذلك سريعاً .
ولكن قد حق الحزن والعويل والنفس معرضة .

(١) يسارع إلى محبته ، أى : يسارع في إجابة .

أنت لا تطيق غضب الله

يا نفس . . مالى أراك مطمئنة . والغالب عليك الفرح
والسرور ، وشواهد المقت بادية عليك . ودلائل الغضب
بينه فيك في كثير من أحوالك ؟

قد اطمأننت وسكنت ، وكثيراً ما يغلب عليك الفرح
والسرور في أكثر الأحوال ، وأنت ترين فيك من الله
دلائل الغضب ، وشواهد المقت ، ثم لا تبكين . ولا لذلك
تكثرئين ، كأنك لغضب الله تطيقين ، ولعذابه تجهلين .
هيهات . . هيهات .

إنك عن دون الله لتضعفين . . ومن أقل أذى الدنيا
تجزعين . . فكيف بشدة غضب الله . . وأليم عذابه ؟
ولكن عقوبات الله منعتك من أن تجزعى^(١) ، فكيف
يصنع الله بمن لا يجزع من غضبه ، ولا يتوجع من أليم
عذابه ، ولا يصلح على آدابه ، ولا يقبل عليه بالإقلاع .
شكراً لدوام نعمائه ، ولا ينحاش ولا يهرب إليه لما يرى من سوء
آثار عقوباته في الدنيا خاصة دون معاشه في نفسه وعياله .

(١) المراد بعقوبات الله : طمس البصيرة ، وسواد القلب

اذكر نظر الله إليك

ويحك يا نفس . . ألم ترى أن مولاك^(١) قد أبعدك
عمّا كان يتعاهد به قلبك من هيجان التيقظ . وقوة التنبيه
والدوام على ذكره . والجزع من نسيانه . وشدة عذابه ؟
لقد رغب الله قلبك في أول أمرك . . وتأديباً كانت
بليّة الله فيك^(٢) . . وتقريباً منه إليك . . وتعحنناً منه عليك .

فنبه قلبك عن الغفلات . . ومن عليك بجود المحلاوة
عند الطاعات . . وشدة التلذذ بالمناجاة . . فأصبحت
وأمسيت مباعدة من الله . . مطرودة عن بابه . . منحاة من
قربه . . قد حل بك منه الخذلان .

تتمادين في الغفلات فلا يوقظك ، ويدوم منك النسيان
فلا ينبهك ، وتكون منك الزلة بعد الزلة . فلا يدوم لك
الحزن ، ولا يطول بك الغم . بل قد قلب التنبيه فيك
فصار لا ينبهك ولا يذكرك .

(١) في الأصل : من مولاك . وما أثبتناه أوضح .

(٢) هذا نوع من البلاء للتأديب ، وتكفير الذنوب ، وإعادة الإنسان
إلى الصراط المستقيم ، وعلامته ألا يشكو صاحبه إلى الناس ، وإن ضاق بالبلاء .

ثم يحجبك بالعقوبة عن استعمال التذكر وطاعة
التنبه .. فصرت في شر حال ، ويليه منزلتان : طول الغفلة
ودوام النسيان لنظر الجليل العظيم ، ثم شهوتك لتترك
استعمال التذكر وطاعة التنبه .

فالحال الأولى : طول غفلة لقلة المبالاة بأن يطلع
وينظر .

والحال الثانية : جرأة وإقدام عليه مع التذكير .
والتنبيه إلى أن صار ذلك يباعده منه ، ويحرم الخلود
في جواره .

فهل سمع السامعون بأسوأ منك حالاً ؟ وهل عرف
العارفون بأشر من منزلتك ؟ ثم مع ذلك الحزن عنك
زائل ، والغم لك مبين ، والتوجع لك غير لازم ، وقد وآ لك
مولاك في أسباب الدنيا بأضداد ذلك كله ، شغللك
بطلبها دائم .

لا تملين .. تنشطين وتقوين إذا رأيت الزيادات في
معاشك .. وتنكسرين إذا رأيت النقصان فيه .. ولا يكون
ذلك فيما بينك وبين ربك إلا في أقل الأوقات .
فقد أصبحت عند الله مفتضحة .. ومن البعد منه
غير مكترثة .

لقد أصبحت وأمسيت وهو عليك غير مقبل ، ولك
غير مقرب ، مقصاه منه مباحدة عنه ، ولولا تفضله عليك
بالعفو لسلبك نعمة الدين كلها ، ولكنه يبقى من العقوبة
تفضلاً وإحساناً .

من أجل ذلك وجب حبه على المطيعين والعاصين جميعاً .
ويحك . . مالك في الجهل مفعمة مغموسة . . وفي
البلايا متلوثة .

ويحك . . هل عقلت من تعصين ؟ بل هل عقلت من
تعوقين ؟

ويحك . . تتأدين في الغفلات فلا يوقظك . ويدوم
منك النسيان فلا ينبهك .

فكيف لا يغلب ذلك عليك . وأنت كل يوم في
نقصان ، وكل يوم لاتفرين من العصبان ؟

إن تبت لم تلبثي أن ترجعي عن توبتك ، وعاودت
في تخبطك ، وإن عزمت لم تقلعي ، وإن فعلت ما عزمت
عليه فمن الآفات لم تسلمي^(١) ، عن حب محمدة أو عجب
بما عملت .

(١) قول المؤلف : وإن عزمت لم تقلعي ، يريد العزم على ترك
العصية ، وقوله : وإن فعلت ما عزمت عليه ، يريد الطاعات .

تعاهدين فتعذرين ، وتعدين فتخلفين . وتحلفين بالله
ثم لاتفنين ، فلو كنت جاهلة كان أخف المحجة عليك ،
وكان أبعد لك عن الجرأة على مولاك^(١) .

ولكن عظمت عليك المحجة . ودامت منك الجرأة ،
إذ كنت للآثار طالبة ، وللقرآن حافظة ، وفي الدقائق
من الحكمة مناظرة ، وبمحسن العظات ناطقة ، تدعين إلى
الله وأنت منه فارة ، وتذكرين بالله . وأنت له ناسية .
تعظمين الله بالقول وأنت بالفعل غير معظمة .

* * *

(١) لا يريد المؤلف أن الجاهل لا حجة عليه . فالجاهل يجب عليه
أن يسأل أهل العلم . ولكن يريد أن المحجة على العالم أعظم منها على الجاهل .
وعصيان العالم حرة . وعصيان الجاهل بالحرمة لا يوصف بالجرأة .

تذكر ساعة الموت

ويحك أنت اليوم مهمة .. والله لك منظر^(١) .. وعن
قليل تنقطع المدة .. وتزول النظرة^(٢) .

ولو قد تغشاك الموت وسياقه فلقد حضرك العدم ،
فأعطيت النية الصحيحة حيث لا يقبل^(٣) .

ويحك .. أتدريين عما ينكشف الغطاء ؟
أما تخافين لو بلغت منك النفس التراقي أن تبسود
رسل الله منحدره من السماء بسواد الألوان ، وكلح الوجوه ،
وبشرى العذاب^(٤) ، فهل ينفعك حينئذ الندم .. أو يقبل
منك الحزن .. أو يرحم منك البكاء ؟

ويحك .. يادري حلول الأجل بالتوبة .. واغتنمي

(١) في الأصل : ناظر . والسياق يقتضي ما أثبتناه .

(٢) النظرة بتشديد النون وفتحها . وكسر الظاء المعجمة . يعنى :
المهلة . أى : دار الحياة الدنيا ومدة العمر فيها . فهى إمهال من الله تعالى
للعباد ليصلح فيها أمره .

(٣) لأنها تشبه توبة البأس . يعنى : التوبة عند الغرغرة ، وهى
غير مقبولة .

(٤) استعمال البشرى فى العذاب تهكم ، كما فى قوله تعالى : « ... فبشرهم
بعذاب أليم » .

عيش كل ساعة .. فإنك في السير مجدة .. وفي كل وقت
من لقاء الله تقربين .

ويحك .. تكلفى الحزن واطلبيه . لعلك من الحزن
الأكبر تنجين^(١) .

ويحك .. كدرى الفكر فيما سلف منك من الذنوب ،
وعودى البكاء عيناً بالدموع قبل سيلها في نار جهنم .

ويحك .. استعيني بأرحم الراحمين . . واشتكى إلى
أكرم الأكرمين . . وأدعى الاستغاثة ، ولا تملى طول
الشكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك . . فإن مصيبتك
قد عظمت . . وبليتك قد تفاقت^(٢) .. وناديك قد طال .
قد انقطعت منك الحيل ، وانزاحت إليك^(٣) العلل ،
فلا مهرب ولا مطلب ولا استغاثة ولا منحا^(٤) ولا منجا
إلا إلى مولاك .

فاضرعى إليه . . وانخشى فى تضرعك على قدر عظيم

(١) الحزن الأكبر : الحزن يوم القيامة . وقد نجي الله منه أوليائه ،
فقال : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(٢) تفاقت : اشتدت خطورتها ؛

(٣) فى الأصل : وانزاحت منك ، خطأ ؛

(٤) لا منحا بالحاء المهملة من التنحية ، وهى الإبعاد : أى : لا إبعاد
عن غضب الله إلا بالتقرب إليه .

جرمك ، وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الدليل ،
ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، فقد -
والله - أصبحت إليه مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ،
فألحى بالطلب للفرج . . واشتكى لعظم المصيبة ، فإن
المطلوب إليه كريم ، والمسئول إليه جواد ، والمستغاث
به رؤوف .

فأدعى الاستغاثة فإنه يغيثك . . وإن من إغاثته لك
أن من عليك بالاستغاثة ، فإن أدمت أتم ما من به عليك ،
وأجاب الدعوة ، وعجل الإغاثة ، فقد - والله - ضاقت
بك السبل ، وانسدت الطرق . وانقطع منك الحبل ،
ولم تنفع فيك العظات ، ولم بكسرك التوبيخ .

فليرك مولاك مقام المضطرين الحيارى الملهوفين ،
لأنه إن آخذك بعظيم جرمك لم يغثك ، وإن صفح بجوده
أن يؤاخذك أسرع إجابتك .

فادعى دعاء من لا يستأهل أن يجاب ولا يغاث ،
طامع من الجواد ألا يناقش بالسيئات ، ولا يؤاخذ
بالخطايا ، ويغيث من يدعو ، وهو عند نفسه لا يستأهل
أن يجاب . ولكن حملة على التضرع معرفته بكرم المسئول
وجود المطلوب ، ورحمة المستغاث .

فاعقلى ما فاتك من طاعة ربك . وما أفنيت من عمرك
فى غير التقرب إليه .

فيا أسفاه على طاعته . . ويا حزنانه على رضاه . .
ويا خجلانه مما أطلع عليه . . ويا طول كمدك إن حرمك
جواره فى الآخرة . . كما حرمك صدق معاملته فى دنياك . .
ويا ثقائلك فى حر جهنم إن لم يعف عنك .

توهم عذاب النار .. وعد إلى ربك

ويحك .. اذكرى ما يحل بأهل عذابه من اشتعال النار في
جميع أجسامهم . ووصولها إلى أحداقهم ودخولها في أجوافهم .
ويحك .. كيف ترين وجع قلب عبد دخلت النار في
عينه . ونفذت إلى جميع بدنه ؟

بل كيف بنار تأكل أمعاءه وكبدته ؟

بل كيف بلسان من نار يدخل في خوف قلبه . ثم
يلتهب في جميع أعضاء جسده ؟
ويحك .. أتأمنين أن يكون هذا غداً نعتك وصفتك ،
وهذه حالك ؟

ويحك .. ارحمى ضعف جسمك . ولا تخاطرى به ،
ورقى لقلة صبرك . ولا تغترى .

إذا لم ترحمى بدنك من النار فمن ترحمين ؟ - وإذا
لم ترقى له فعلى من ترقين ؟

والله لو تبت وأنبت وأطعت ، لم آمن عليك أن يردك
ولا يقيلك ، فاستقيليه عسى ألا يردك ، ولا تنالين ذلك إلا به .
فافزعى إليه فزع المالك ، وتضرعى إليه تضرع

الغريق ، واستغثى به استغاثة العطب . فإن المستغيث مأذون له في الاستغاثة ، والله الداعي موفق للدعاء^(١) . .
فما كان الكريم يمن بالاستغاثة . ويهيج على الطلب ، وهو لا يريد ممن فعل به ذلك ألا يجيبه .

ولكن ليكثر المتفضل عليه^(٢) بالدعاء على مقدار نعمته وليلج بالطلب على قدر مسكنته ، فلتقصير في ذلك رد أكثر المستغيثين^(٣) .

فأما من فتح الله عليه باب الاستغاثة ، ومن عليه بالتضرع إليه ، فعظم منته بذلك . وعلم أنه أعطى ما لم يستأهله . ثم داوم وواظب على الطلب ، فلن يخيب الله دعوته . ولن يمسك إجابته .

أبى الجواد بكرمه ، وجوده أن يرد من أرادته فاشتكى إليه .

فداومى ، ولا تمل ، فمن كان في مثل حالك لا يمل دوام التضرع ، لشدة مسكنته ، ولعظيم مصيبتة .

(١) يعنى : الداعي عباده إلى دعائه بقوله : « ادعوني أستجب لكم » .

(٢) يعنى : من تفضل الله عليه بالتوفيق إلى الدعاء .

(٣) رد أكثر المستغيثين لأنهم لا يلحون بالدعاء والطلب ، ويندومون عليه . بينما الشريعة تحث على إدمان الدعاء ، وتعتبره مخ العباداة . وفسروا قوله تعالى : « . . . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » بأن العباداة : الدعاء .

وازن بين النعيم والعذاب

ويحك .. إن لم تخاف العذاب ، ولم ترحمى جسدك ،
أما تشتاقين أن يحل بك من الله الرضى ، وينظر إليك
بالحظوة ؟

ويحك .. أما تحنين إلى طيب جوار الله فى جنته ،
فى روح لا يزول ، ونعيم لا يبيد ، وقرة عين لا تنقطع ، فوق
الأماني مما تشتتهيهِ الأنفس مع البقاء واليقين بالرضوان ؟
وأعظم من ذلك تشتاقين إلى أن تزورى مولاك ،
وتسعى كلامه لك بالترحيب ، ويكشف الحجاب فتنظري
إلى من لا يشبهه شيء فى جلاله ؟

ويحك .. فى هذه الدار وجب ذلك كله للعمال . وفى
هذه حل الحرمان كله على الجهال فعيشك غنيمة . وبقيّة
عمرِكَ إقالة ، فافرحى ، واشكرى مولاك أن يكون الموت
عاجلك ، فحال بينك وبين الرجوع ، وقطع بك عن
النزوع ، وفاتك طيب جوار الله الجليل العظيم .

ويحك .. لا تزهدى فى القرب من النار ، ولا تستهينى
بطيب الجوار ، ولا تعرضى عن الرغبة فى رضوان الله .

إني لأقول لك هذا . ولا أدري أى حال عند الله حالك .

بماذا ينظر إليك في ساعتك هذه . . بالمحبة والرضوان . .
أم بالغضب والسخط والحرمان . . وأى الدارين دارك . .
وأى القرارين قرارك . . وأى العيش عيشك . . فكلما
الدارين قد امتلأ بسكانها . . ووصل كل واحدة منها أهلها .
فأطلع بقلب فارغ إلى الجنة وقد ثوى^(١) فيها
سكانها . . إلى انفساح سعتها ، وبرد طيب نسيمها . وإلى
طيب مايفوح من روائحها ، وإلى حسن بناء قصورها . .
وبهجة حليها وحريرها . وتلاؤل نورها على أسرتها وحجالها
وحسن وجوه أهلها . ونصرة أثر النعم في وجوههم .
وقربهم من مليكهم ، ويقينهم برضا الله عز وجل عنهم ،
واختلاف الملائكة رسلاً من الله إليهم . وتردد الولدان
كاللؤلؤ في لذاتهم ، واضطرار أنهارها على جنادل ياقوتها ،
وقد تضمنت من أصناف البهجة في عرصاتنا .

ثم اشرى بوجهك على دار الهون والخزى ، فانظري
ببصر قلبك إلى شدة ضيقها ، وتكاثف ظلمتها وانطباق
أبوابها ، مسودة بالعمد^(٢) عليهم . ووهج النيران فيها .

(١) ثوى فيها سكانها : أقاموا فيها .

(٢) يشير إلى قوله تعالى في وصف جهنم : « إنها عليهم مؤصلة . في

عمد ممددة » .

ثم انظري إلى قبيح صور المعذبين فيها . وإلى شدة
نشن دارهم ، وتهتك أجسامهم . وتنتن مقطعات ما بهم ،
وإلى النيران ملتهبة من فوق رؤوسهم . وأسافل أقدامهم ،
وإلى حياض الحميم تفور . معدة بشدة عطشهم ، وتجاوب
أصواتهم بالويل والثبور . وإلى تضرعهم إلى مالك والخزنة
وندائهم الأقرباء بالاستغاثة . ثم دعاهم إلى ربهم ،
فأخسأهم . فانقطعت أصواتهم . والتحمت أفواههم ،
وحبست أنفاسهم ، وبقوا بالغم والكرب لا يشنفسون إلى
حلول غضب الله عليهم . وانقطاع رجائهم منه .

وتوهى ماتضمنته حواشيها من صنوف الهوان .
والألوان من العذاب ، فإنك إن نظرت في ساعتك هذه
إلى كل واحدة منها وعظيم ما فيها ، ثم لم تأمني حرمان
جوار الله ، والخلود في دار عذابه أشفقت ، وإن أشفقت
حذرت ، وإن حذرت أيقنت بكل ما يتوعد به . فنتبت
وأنبت ، ومن كل ما يكره تطهرت .

فانظري وتوهى إلى عواقب من أطاع واتقى . وعواقب
من عصى الله وأساء . ولا ترضى بأن تخاطري فيما إن
وقعت فيه لم تقلى^(١) . ولا إلى الدنيا تردين .

(١) لم تقلى . أصلها : لم تقالى من الإقالة . وهى التحرر من العذاب ،
وتما حذفت ألف الفعل ، وهى عينه بسبب « لم » الجازمة .

فإن رحم الله بكاءك . وسمع شكواك ، وعلم منك النوح
والعويل إذ عرف عظيم سيئتك ، رجوت أن يعجل لك
الفرج ، وينقلك إلى مقام من تولاه ، ورحم تضرعه
وشكواه .

فخذى فى النوح والعويل ، والشكوى والتعديد طلباً
لجبر المصيبة ، وقولى : يا رحمن يا رحيم ، يا عظيم يا جليل
خلقتنى وسويت خلقى ، وربيتنى فأحسنيت تربيتى ، حتى
بلغت مبلغ من وجب عليك فرضك ، وحرم عليه ما نهيته
عنه ، لم أشكرك نعمائك ، ولم أرفع حقك ، فتعرضت
لمساخطك ، ووليت وأعرضت ، فما فارقتى مع ذلك شرك ،
وجميل إحسانك .

ثم عاودت التعرض لمعصيتك ، فما زدتنى إلا براً
ولطفاً أدمنت تحرى رضاك ، فأبيت إلا عطفاً وتحنناً
أعارض كل إحسان منك بإساءتى ، وتعارض كل إساءة
منى بإحسانك .

ثم مننت على تنظر إلى طول غفلتى ، فأيقظتنى من
وقدتى ، ونبهتنى من غفلتى ، فقصدت إلى إصرار قلبى
فحللته بالتوبة ، توفيقاً منك لى .

فلما ظهرت توبتى للعباد ، أبت إلا أن تردنى إلى

زينة الدنيا . وحسن ثناء الخلق . والركون إلى تعظيمهم ،
فرجعت كاذباً . أتصنع برجوعى إليك . وأتزين ،
بشقوقى منك .

ثم مننت على بطلب الآثار ، والحفظ للقرآن ،
فعضيتك بعد العلم والبيان معاصى فى الجوارح وأسباب
المعاش . ومعاصى فيما مننت على به من الطاعات . والقربة
إليك ، ففى كلا الحالين أتممت فيما أتقرب به إليك ،
أخلطه بما يباعدى منك ، وفيما أعصيك به . أتعرض
لسخطك . فعظم منى الإحرام إذ كان بعد العلم والبرهان .
فاغتررت بالستر إذ ظهر حسن الثناء من الناس . فركنت إلى
قيام المنزلة . فصرت أعمل فى دوامها . وأجزع من نقصانها .
فأنا العاصى فى دنيائى . وأنا المفلس المسلوب . بل
أنا الموقر بالخطايا والذنوب ، بل أنا العليل الدائم على
التعرض للسقوط ، كأنى مقيم على أسباب مهلكتى .

فالويل لى إن كان قد سخط على ربى . . والخيبة لى إن
كان مقت الله حل لى . . والحسرة لى إن كان الله أوجب
على ألا أجاوره فى جنته . . والويل والعويل إن كان
قد أغلق الباب عنى ، فلا ترفع لى السماء دعوة . . ولا يصعد
إليه منى عمل .

فياطول حزني وغمي .. وياطول جهدي وكمدي إن
كان الله قد قطع ما بيني وبينه . فلو معي جميع أهل
السموات والأرض لعظيم مصيبتى لكأنت أعظم من معي
بهم رحمة لى .

ويحى وتأويلي .. لعل من أعداء الله وأنا لا أدري ،
ولعله أوجب على نفسه أن لا يقيلى دون أن يجعل النار
من الدنيا منقلبي ، فما بينى وبين الهوان والذل الطويل
والحزن إن لم يعف عني إلى أن تنقطع أيام أجلى ، فيحضر
وقت منيتى ، ويكشف لى عن الغطاء ، ويأتينى الخبر اليقين .
فيا جهدى وضعفى . . ويا ذل استحيائى . . ويا شدة
حسرتى وعظم ندامتى ، لقد خبت إذ رد دعائى ولم يرحم
شكواى .

فكيف يغيث من غضب عليه ؟ وكيف يرحم من
سخط عليه ؟

فأنا الجرىء الذى لا يقلع ، وأنا المتمادى الذى ، لا يستحي .
ويحك يا نفس .. أين تلاوة القرآن ؟ وأين معالى
الآثار ؟ وأين الشكر لمن لا تعرفين منه إلا الإحسان ؟
رضيت بأحوال الجاهلين ومنازل الغافلين ، وأعمال
الفاسقين .

ويحك يا نفس.. أليس قد انقطع عنك كل لذة ،
وزالت عنك كل رفاهية ؟ وانقضت الساعات والأيام ،
وما كان فيها من التخليط والذنوب : وبقيت عليك
الأوزار . هذا ما قد قضى وذهب .. وبقي السؤال !! .

فهكذا تستقبلي أيامك .. ما يكون منها وما يبقَى عليك
من التبعات ، فتحولى عما ينقضى ويبقى سوء عاقبته ، والله
فما ينفعك معه رزق ولا أجل ، ولا يفارقك حسن عاقبتك
في دنياك وآخرتك .

ويحك .. فنادى ربك بصوت محزون من قلب محتدم
مغموم .. واسبلى الدموع واستغيثي استغاثة المكروب .

فقلوبى يارب هذا مقام المتضرع المسكين ، البائس
الفقير ، الهالك الغريق ، فعجل إغاثتى وفرجى ، وأرني
آثار رحمتك ، وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة
عظمتك ولذة إقبالك عليّ ، وترويح زوال عقوبتك ،
وسرور القلب منك ، وأنس الحب لك .

فبدل أحوالى ، واقلب همتى ، وحول لذنى حتى يصير
ذلك في صدق معاملتك ، وحلاوة مناجاتك ، وراحة
الثقة بك .

استحي من الله وحده

يا نفس فادعيه وأنت منه مستحية . فقد طال
قلة حيائك منه .

ويحك.. تستحين من الخلق من المؤمنين والكافرين
أن يروا فيك ما يعيبونك به . ولا تستحي ممن يطلع على
كثرة ما عندك من ذنوب وسوء ضميرك .

ويحك.. إذا حملت وعاء من أوعية الشر ، فإنك
ترتعدين خوفاً أن يبدو للناس شيء مما فيه من الشر .
فمتى تصلحي ما بينك وبين الله ؟ هيهات . . اذكرى
الموت كالعبد السوء الذي لا يستحي من مولاه ، ولا يرجع
عن مساوئه ، ولا يعرف إحسانه إليه إلا عند الحساب ،
والعقاب ، واذكرى الموت وما بعد الموت .

ما ظنك بمن يكره أن يطلع الناس منه على ما يكره
الله ، ولا يستحي أن يطلع الله منه على ما يكره .

سوءة لك.. وعجباً لك !! حيث تتركى ، وتضيعى
الفرص ، وتركبي من الأشياء ما كره الله ، ثم تتقربى إلى
الله بما لم يفرضه عليك ، وتعاطى النوافل ، وتأمرى ،

وتنهى ، وتدعى الناس بزعمك إلى الله ، وتأبى منه وتأمري
ولا نعملى ، وتنهى ولا تنتهى .

سوءة لك .. فمن ذلك ينبغى أن تستحى .

فادعى على تفقد لطف مولاك لعلك أن تستحى منه .
فإن لطفه باطن وظاهر مع إساءة منك باطنة وظاهرة . فهو
يديم إحسانه بأضعاف الإحسان مع دوامك على الإساءة
بصنوف من الإساءة .

ويحك .. أو كافرة أنت ؟ أم شاكّة فى الله أنت ؟
ويلك .. والويل لك ، ما أسوأ حالك !! مهلكة وأنت
تعلمين .. مع ذلك فى السرور تتقلبين . وبالله لا تبالين ..
من خلقه تستحى ومنه لا تستحى !! .

ويلك .. على الغضب منه تستقدين !! أما تستدلين ؟
فأنت لا تكترئين ولا تحزنين . كل ذلك غرة بالله وجرأة
عليه ؟ !! .

فقد تحيرت يا نفس فى أمرك !! وتبدلت فى التأتى لكى
أعاتيك ولا تغيشنى ، وأعظك ولا تتعظين ولا تنكسرين .
وأعيرك فلا تستحى ، وأشكوك إلى من علمك فلا تدانى
أهلاً للجواب ، وأستغيث منك فلا تغيشنى !!
فما أدرى !! كيف حيلتى ؟ ولمن أستغيث ؟ وبمن

أستعين ؟ على ربي لعله له عنده جاهنا فيطلب لي فيشفعه
ويفرج عني ، فما أجد حيلة إن لم يجب دعوتي !! .
مولاي .. ولا مطلب للفرج إلا بتكرار الإغاثة .. ودوام
الشكوى . لعله يرحم ضعفي ، ويكشف صري . ويزيل
سقمي . وينعش صرعتي ، وينقلني من غرقى .
فأنا والله الكذاب المستور عند العباد . وأنا الهالك
الفرج . وأنا الغريق المسرور .

لا تقنط من رحمة الله

يارب .. فمن سمع بمثل ضعفى ، ومن رأى مثل شر منزلتى . فأليك أشكو ، وبك أستغيث .. مع اليقين بأننى لست أهلا لأن تغيثنى ولا تفرج عني ، لكن أنت أهل أن تروح عني ، وترحم مسكنتى ، فإن معرفتى أنه لا يملك أحد إغاثتى غيرك هى التى اضطرتنى إلى الإيأس من كل فرج إلا من عندك .

الأمّل فيك أن تجيب دعوتى ، وتنعشنى من مصرعى فلا تخيب أملى .. وعجل تحقيق طمعى ، فما جرائى على الطلب إلا ما مننت على به من معرفة وجودك العظيم . ورحمتك الواسعة ، وتحنك على الضعفاء من قبلى ، ونقلت من نقلت من عظيم جرمه وكثرة خطاياهم ومساوئ فعله .

* * *

تذكر عذاب القبر

فأغثنى يا مغيث .. وارحمنى يا رحيم .. فأنا اليوم فى
رفاهية فى دنياى مع سوء حالى فى دينى .

فقد قرب زوال الدنيا عنى . ووقعى فى الأحوال
المتصلة . والشدائد المتداركة . والغموم المتوافرة من
نزع الموت وكربه . مع عظيم خطر ما يأتينى منك من
الصفح والغفران ، أو السخط لما كان منى من العصيان
ثم حلول القبر وضغطة الأرض . والسؤال من الملكين .
والمكث الطويل فى البرزخ . ثم الحشر والكشف عن
الغطاء .

فإن لقيتكم على حالتى هذه فما أطول همى فى القبر .
وما أشد يوم النشور على . ثم يغلب على قلبى إن لم تغثنى
فى الدنيا ، فتنقلنى مما يسخطك إلى ما يرضيك عنى .
إن إغاثتكم فى تلك الأحوال لاتنالى . فاهلاك
الذى - والله - لا ينقطع فى لقاءك ، والهوان فى يوم
النشور .

فيا غربتى فى القيامة .. ويا طول الحسرة والندامة .

فيأطون بكائي يوم القيامة . وسجني في النار عن طيب
جوارك والنظر إلى جلالك .

إني لأرجو - وإن كنت أحرث إغاثي - أن لا تدعني
لسوء حالي حتى يعجل فرجي ونقلي . فأسألك بوجهك
الكريم ، وقدرتك على كل شيء . وإرادتك النافذة في
كل ما تريد ، وأوليتك التي لا بداية لها . ويقائك الذي
لا انقطاع له ، أن تكشف حزبي . ولا تؤاخذني بعظيم
جرمي ، وكثرة عصياني . قلة حيائي .

* * *

داوم على الإغاثة والدعاء لله

فوعزت لك .. لا يردني ردك لي . وتركتك إغاثتي ،
إلا دواماً على التضرع ، وكثرة الإلحاح بالطلب ، لأنه
لا يحل لي أن ينقطع منك رجائي .

فلم تؤخر إجابتي ؟ فلا بخل يعتريك ، ولا لزوال
قدرة منك على فرجي ، ولا أنك تعلم سوء حالي ولا أن
رحمتك تضيق عني ، ولا لأنني لست محتاجاً مضطراً إلى
ما أطلب إليك .

وأتضرع وأستغيث .. فإذا كانت لاعة لحبس
إجابتي إلا من قبلي . ولا يحل أن ينقطع منك رجائي ،
لأنك لو أردت أن ينقطع رجائي لم يبق لي فيك الأمل ،
وقد حسن فيك ظني وأمكنني طمع أن تريد إجابتي .
وإنك إنما حبست عني الإغاثة ليطول مني الطلب . ويدوم
مني التضرع ، كما دمت على معاصيك . وواظبت على
تضييع أمرك ، فتحبس حتى أدمن على التضرع ، كما
أدمنت على الإعراض عنك عقوبة .

ثم تفرج عني بعد الإلحاح ، وتغيثني بعد الدوام

على الشكوى والاستكانة . فأسرع غيائى . ولا تكافئنى
بطول تأديبى ، فإن كافأتنى وأنت تريد أن تغيثنى بعد
طول الدعاء . فلا تنزع منى توفيقك لإدامة الاستغاثة ،
وتواتر الاستكانة . فإننى لا أقدر على الإلحاح بالفرع
إليك إلا بتوفيقك ، فليست أدعى الدعاء إن حبست على
النقطة .

ثم تستجيب دعوتى وترحم ضرعتى واهلى ، فها أنا ذا
متضرع مسكين . وعلمك على أضرع وأنضع .

فإن تعجل فرجى فقد تم سرورى ، وإن تؤخر راحى
من بلاى ففى الطلب والدعاء تنفيس ، وإذا لم تنيلنى الأمل
فيك ولم تحرمنى من الشكوى^(١) إليك وإلقاء نفسى
بين يديك مع أملى .

* * *

(١) فى الأصل : الشكوا . خطأ .

تذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً

إن غمى إن عقلت لعظيم ، وإنه خزيى شديد ،
وإن كرىى لغالب ، إذ كنت أعىش بالطلب والفرج لى
غير معجل .

وقد رأيت وسمعت ، وأيقنت وأدركت من قد
مدحت عنه وأغشته ، وعجلت فرجه ، فظهرته من
الأدناس ، وألزمته الإشفاق والحب لك ، والحنين إليك
فلو تقطعت كبدى حشرات لكننت بذلك حقيقياً
لأننى مضطر مجهود ، أطلب فلا أعطى ، وأرى ماتتقلب
فيه أعمالك من كثرة الأيادى ، ودوام الإحسان ،
ولا تطاوعنى نفسى أن أشاركهم فى مقاماتهم .

وإنما أسأل الذى من عليهم بذلك أن تشركنى فى
التوفيق معهم .. فطوبى لعبد أغشته ، فظهرت من دنس
الذنوب قلبه ، وألزمته التعظيم لك ، وحسن الدعاية لك
ومننت عليه بصدق الحب لك وشدة الحنين إليك ،
وعظيم الشوق إلى لقائك ، مع خوف شديد وحزن طويل ،
والوجل والشفق مما مضى من تفريطه ، وما سلف من

من ذنوبه ، فهو يتحنن إليك ، ويأنس بقربك ،
وينعم بمناجاتك ، وهو يخاف أن يحال بينك وبينه .
فقد طاب في باقي عمره عيشه ، فوهته من خوفه ورغبته ،
وحبه وحنينه يتصاعدان لم ، ويسموان بوهمه ويستخرجان منه .
بدلت المجهود في التقرب إليك . فهذا من أغثته
بلا نقص دخل عليك في ملكك ، وأنا قد تركتني فقيراً
محتاجاً ، لا تنقصك إغاثتي . فعجل فرجى لأن تأخير
إجابتي يحزنني ، ولا أدري متى يكون فرجى ؟ !

أنا مغموم لما مضى من إعراض عنك ، ومما يكسر
فؤادي ويقرح قلبي نظري إلى عمالك يتقلبون في كرامتك
ويترفعون في مواهبك ، ويتنعمون بشدة الحنين إليك .
عن الدنيا معرضين ، ولعلالي القرب منك في طلبه جادين ،
غنى في نفوسهم عن سواك ، وعز بك من العبيد .

فأنا عبدك كما هم عبيدك ، وأنا فقير مضطر
كما كانوا مضطرين في سوء الحال ، فصفحت لهم عن
خطاياهم ونقلتهم عن دناءة أخلاقهم وقبيح أعمالهم .
فألحق عبيدك الفقير المحتاج بعمالك الأقوياء ،
وبالراجعين إليك المنيبين ، ولا تؤخر ذلك طرفة عين .
ولنما أمرك إذا أردت شيئاً أن تقول له كن فيكون .

فقل للخوف والوجل والرهب والشفق أن تلزم قلبي .
وللحب لك أن يعلو على جميع همي ، ولجوارحي بمن
تدأب مسارعة ، ولهواي وشهواتي أن تموت خاشعة حتى
تذيقني الفرح بنعيم الطاعات ، واصلاً بنعيم الأبد في
جوارك والنظر إلى جمالك .

يا إلهي .. ويا ربّي .. ويا موضع شكواي ومفرجي في
لهفي .. إنما أعيش برجاء جودك . فلولا ذلك لخشيت أن
تنشق مرارتي ، وتفتت كبدي كلما ذكرت جرأتي
عليك ، وإقدامي على مانهيتي عنه . ولم يكسرني
ما عرفتني من عظيم جلالك .

كاد الإياس أن يخامر عقلي ، وضاعت على الأرض
برحبها ، إذ كنت لا آمن أن أكون انقلبت في عينك
بالمقت والسخط على .

هذا خوفي .. مع قسوة قلبي يكاد عقلي معه يطيش .
فكيف إن أتتني رسلك بالبشرى بذلك عند الموت ؟؟
لقد تحقق إذاً خوفي ، وانقطع رجائي ، وبطل أملی .
وحسر قلبي ، وعظمت حسرتي وندمي ، ولا مغيث لي
ولا شفيع ولا أُرْدُّ إلى الدنيا التي فيها خالفت أمرك .
فأطيعك وأتحرى رضوانك .

هيهات .. لا مرجع ولا مستعقب ، فانظر إلى برحمة
لا أستأهلها ، أو بادرني قبل حلول الموت بتوبة ترضاها
فإني أرجوها ، ولا آمن أن تمن بها عليّ ، ولكن أطمع
فيك إذا وهبت لي معرفتك ، ولم تبلغ بي عقوبتك أن
تسلبني الإيمان بك ، وأبقيت لي الطمع فيك ، فبالجود
الذي أمسكت عن عقوبتي أن ينقطع منك أملی ،
ألا حققت أملی ، وأسرعت بفرجي !!!

* * *

تذكر يوم الحساب

ويحك يا نفس .. كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ،
وتظنين أنك إذا مت وانفلت وتخلصت .. وهيهات ،
أتحسبين أنك تتركين سدى ؟

ألم تكوني نطفة من منى عني ثم علقه فخلق فسوى ،
أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا
من إظهارك فما أكفرك وأجهلك !! .

أما تتفكرين أنه مماذا خلقك ؟ من نطفة خلقك
فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم أمانتك فأقبرك ،
أفتكذبيته في قوله : « ثم إذا شاء أنشره » فإن لم تكوني
مكذبة ، فمالك لا تأخذين حذرَكَ ؟ ولو أن يهودياً
أخبرك في ألد أطعمتك بأنه يضرك في مرضك ، لصبرت
عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول
الأنبياء عندك أقل تأثيراً من قول يهودي ؟

أما تعلمين يا نفسي أن الموت موعدك ، والقبر بيتك
والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفرع الأكبر
بين يديك ؟

فاحذرى يا نفسى يوماً آلى الله منه على نفسه أن
لا يترك عبداً فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله .
دقيقه وجليله . سره وعلايته .

فانظرى يا نفس بآى بدد تقفين بين يدى الله .
وبآى لسان تجيبين ، وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب
صواباً ، واعمل بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ،
وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار
نعيم وخلود ، اعمل قبل أن تعمل ، اخرج من الدنيا
اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرج منها على
الاضطرار ، ولا تفرح بما يساعدك من زهرات الدنيا ،
فرب مسرور مغبون . ورب مغبون لا يشعر .

قويل لمن له الويل ثم لا يشعر . يضحك ويفرح
ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، قد حق له فى كتاب الله
أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً . أو سعيك
لها اضطراراً ، وفضلك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة
ابتداراً . ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى .
ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولا ينتهى .
ويحك عما بداخلك . . غدا بين يدى مولاك ،

فلا تغربى عنه صفحاً ، ولا تشاغلى عن ذكره . ولا تدعى
العدة بتهيئة الجواب له بصدق ما كنت عليه فى الدنيا ،
فلأن يحينى بالصدق أرفه لقلبك من أن تحينى بالكذب .

والله ما قامت العقول من الصادقين عند جوابه حتى
ذهلت ، ثم ردها إليهم لإقامة الحجة على المسخوط عليهم
أن يدخلهم فى عذابه وهم له عاذرون ، ولأنفسهم لائمون
إذ قدرهم بما ضيعوا من حقه . واجتروا عليه فى ركوب
نبيه ، وليستخرج من الصادقين صدق الجواب فيقبله
منهم ، ويؤمنهم ما كانوا به خائفين ، ويسرهم بقبوله
منهم عوضاً مما كانوا فى الدنيا من رده مشفقين . ولكن
لابد إذا أرادوا أن يقرءوا كتبهم ، ويبتدئ الله فى
مسائلهم أن تزدهقهم الهيبة العظمى ، والمخافة الكبرى .

هذا ابن مريم عليه السلام يقول له الجليل يوم
القيامة : (... أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي
إلهين من دون الله ...)^(١) . فروى فى الحديث أنه يزول
كل معضل منه على حباله ، ومما يدل على صدق الحديث
فى ذلك ، قوله : « إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ » . هذا

(١) سورة المائدة الآية ١١٦ .

جواب ذاهل ، لا يدرى ما يجيب ، قال أبو ميسرة :
(لم يدر لعله قاله ، فقال : « إن كنت قاتته فقد علمته »
ثم بدا إليه عقله ، فقال : « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به »
وهذه جماعة الرسل تقول : « ماذا أجبتكم ، فيقولون :
لا علم لنا إنك علام الغيوب) .

فيا نفس ويحك .. اعملى على أنه قد رحم شكواك
فيقلك عن بلائك .. أين توارين مادمتم فى الدنيا من
نظره ، مع ما يعلم من قبائحك التى سلفت منك ؟
وأين تزوغين وأين تحيدين غداً عن العرض عليه ،
وتراه جميع مساوئك ، واستماع كلامك بذكر فضائحك؟
ويحك .. فلا تعيشى فى الدنيا إلا بحمده ، ولا تتقلبي
فى أحوالك إلا حسرة ، ولا تصبحى ولا تمسى إلا خجلة
من توقعك للمتقلب إلى الوقوف بين يديه ، والسؤال
منه إليك مع - والله - أحوالك قبل السؤال منه فى يوم
النشور .

فأين قلبك حينئذ يا جاهل ؟ وأين فؤادك يا غافل ؟
لو يقع المني أن لا تكونى من المخلوقين أو إذا كنت
خلقت أن لا تكونى من المبعوثين لكنت إلى ذلك
تروحين وإليه تفرعين .

ولكن هيهات قد كتب عليك ما عصيت ، وأحصى عليك ما عصيت ، وأحصى عليك عصيانك فلا ينسى ، وكتب فلا يمحي ، وأنت تعين أن الملك للأعلى عارف بما كان منك من البلايا ، ثم المصير إليه لاشك فيه ، ثم الأهوال ما لا تقوم له السماوات ولا الجبال الصم الشوامخ في الوري ، والمعرض على ذى العز والكبرياء ، ثم لعل الانصراف من بين يدي الله عز وجل مع الأشقياء إلى العذاب حار في الوصف ، أن يحد شدته ، وأن يعلم ألمه ، وأن يعلم شدة حرقة للقلوب مع الضم الذى لا يحد والحزن الذى لا استطاع أن يوصف .

ثم السحرة اجتمعوا ليغلبوا كلمك بسحرهم : إن غلبوه أن يجعلهم أجراً من ملكه ، وزلفة لديه فما منعك ذلك من مقامهم ذلك في عقب كفرهم وحلفهم بعزة فرعون إلهاً إتخذوه من دونك ، إن عطفت عليهم برحمتك ، وتفضلت عليهم بكرمك ، وتحننت عليهم بجودك فبصرتهم جهلهم وعرفتهم ظلمهم أنفسهم . وألزمهم الإقرار بربوبيتك والإخلاص لعظمتك ، وعرفتهم صغر فرعون وضعفه ، وصفدت الدنيا في قلوبهم ، وهونت عليهم قطع أيديهم وأرجلهم في مرضاتك ، والصبر على

الإيمان بك ، وهونت لهم رحى جنتك ، وألزمت قلوبهم
خوف عذابك ، حتى نطقوا بك في مقامهم ، كأنهم قد
مرت بهم الدهور في طاعتك . ودراسة العلم من كتبك .

ثم عرفتهم أن ما مننت عليهم من الإيمان بك لا يتم
إلا بك ، وأن ما تهددهم فرعون به من قتلهم وصلبهم
لا يستطيعون الصبر عليه إلا بمنك وتوفيقك ، وأيقظتهم
إن ناجوك بذلك عما عرفتهم من حاجتهم إلى عفوك ،
وتأييدك . فقالوا : «... رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا
مُسْلِمِينَ»^(١) .

فيا من لا إله إلا أنت . ويا قديم الأبد ثم سواه ،
ويا خالق لا خالق معه ، ويا منفرد الصفات الحسنی
لامساوی له ، ويا غياث المؤمنين قبلى ، ويا صاحب
السحرة وقد غدوا كفاراً فجرة ، فنالتهم رحمتك .
وتحننت عليهم برأفتك .

* * *

(١) سورة الأعراف الآية ١٢٦

اطلب الإغاثة بالتوبة من الذنوب

أغثنى ولا تنظر إلى سوء ما عندى ، ولا عظيم جرمى ،
كما لا يمنعك عظيم جرم السحرة ، ولا خطايا المذنبين
قبلهم وبعدهم . إذ مننت عليهم بالتوبة ، ومنحتهم
العصاة .

فالغوث الغوث .. والفرج الفرج .. فقد طمعتنى بأن
تعجل فرجى ، وتفك من الذنوب أسرى .

فعجل الفرج لى ولو ساعة من النهار . ثم تيمتتى قبل
أن أبدل وأغير ، وأن تفرج عنى وتنظر إلى فى المهلة .
وتهب لى طيب المعاملة لك . وذلك قرّة عينى فى الدنيا
والآخرة . فأقرر عينى بطاعتك بدلاً مما قررت وسررت
بإيثار الدنيا وأمانيتها على محبتك .

فيا أسفى على ماضى من عمرى . وما فاتنى من
التلذذ بمناجاتك .

فأنت المحمود على حسن^(١) ، فلقد طالبت

(١) مكان النقط : مطموس فى الأصل .

فأحسنّت المطالبة ، وأنظرت فأحسنّت النظرة وأمهلت
فلذلك الحمد كما أنت أهله وكما ينبغي لكرم وجهك
وعز جلالك ، وعظيم ربوبيتك؟ .

أأست الذي أهتك ستري وتسترنى ، وأتبغض إليك
وإلى خلقك وتحبني ، وأتباعد منك وتقربني ، وأتحرى
مساخطك وأنت تتحرى ما يرضيني؟ .

أستعين بنعمتك على معاصيك ، وبإحسانك على
تضييع أمرك ، آتى ما تكره شأنه فتسترنى ، أديم تضييع
شكرك وتديم بركتك ولطفك ، وأدعوك فتسمع إجابتي ،
وتدعوني فأبطيني عن إجابتك ، فبئس العبد أنا لك ونعم
المولى أنت لي .

فلذلك انكسر فؤادي ، ونكست المذلة رأسي واستحييت
لعظيم جرمي ، ولولا أنني أخاف إن لم أسألك أن تغضب
على ما سألتك ، علمتني أسماءك ، وأمرتني بدعائك ، فقد
عظم فيك طمعي ، وأنجيتني ، ثم عرفتني أنه لا إله
سواك يعينني ، ولا رب غيرك يفرج عني ، فأنا مستسلم
لعذابك لعظيم جرمي ، طائع غير آيس من رحمتك ،
لما عرفتته من جودك وكرمك وسعة رحمتك .

فتفضل ولا تكامن . واعف ولا تتجاز ، وفرج ،
ولا تؤاخذ ، يا أرحم الراحمين ، ويا أكرم من كل كريم

بل لا كريم ولا جواد ولا راحم بالحقيقة غيرك ، لم تزل
ولا تزال كذلك .

القلوب كلها تصوف عن مشيئتك ، والنواصي كلها
بيدك في قبضتك : ورحمتك وسعت كل خلقك ، وعفوك
غمر كل بريتك ، وعرفتني نفسك وعلمت ضعفى في شدة
جرأتى عليك .

وها أنذا بين يديك غريق فانقذنى ، واثق ببرك
فزددنى ، وحيران متعير فسدنى . ومخذول بعقوبتك
لطول تماديه .

فاغمدنى بعفوك وارحمنى برحمتك ورأفتك وتحننك
فقد مسانى النكال وغيّرت أحوالى العقوبة حتى صرت إلى
شر منزلة فى دينى ، أسألك فلا تعطينى . وأسغيث بك
فلا تغيشنى ، وأتضرع إليك فلا ترحمنى ، وأسّجّر بك
فتصرف وجهك عني ، ولولا ذلك لذقت برد عفوك ، وأثر
حسن إجابتك ، وذلك كله قليل ممّا استوجبه من العقوبة
لجرأتى عليك بعد العلم بك والمعرفة بشدة عذابك .

يارب . . فلو كنت تدعنى بذنوبى التى كانت ، وتمنعنى
معصيتك من الازدياد كل يوم فى ذنوبى كان أقلّ لغمى
ومعى ذنوبى .

وأخاطب نفسي بالردِّ ولم تمنعني من الازدياد على بلای
إلاَّ البقية التي بقيت لي عندك .

لم تخرجني من ولايتك ؟ ولكن قد أفرح قلبي و أنهل
فؤادي من ذكر رحمتك .

فيا طول ويلاه ويا تلذذ النار ، أين الحرب وكيف
الحيلة ؟ وعزتك لا أقطع أملی فيك ، وأنت أرحم الراحمين
إلاَّ أن يتحول خذلانك عني . ولا تسخطني ، فأنا منتظر
لعطفك ورأفتك وتحننك وكرمك .

* * *

« تمت معاتبة النفس بحمد الله . غفر الله لمن قرأه .
ودعى لكتابه بالرحمة والمعرفة » .

معاتبه النفس عند الغزالي

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ،
وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة للشر . فرارة من الخير ،
وأمرت بتنزكيتها وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى
عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها ،
فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن
لأزمتمها بالتوبيخ والمعاتبه ، والعزل والملامة كانت نفسك
هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير
النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله
راضية مرضية .

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن
بوعظ غيرك ما لم تشغل أولاً بوعظ نفسك ، أوحى الله تعالى
إلى عيسى عليه السلام : « يا بن مريم عظ نفسك فإن
اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني » ، وقال تعالى :
« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »^(١) وسبيلك أن
تقبل عليها ، فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبداً

(١) سورة الداريات الآية ٥٥ :

تتعزز بفطنتها وهدايتها . ويشتد أنفها واستنكافها إذا
نسبت إلى الحمق ، فتقول لها : يا نفس .. ما أعظم جهلك
تدعين الحكمة والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس
غباوة وحمقاً . أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ،
وأنت صائرة إلى إحداهما على القرب .

فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت
مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين -
أو غداً - فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً .
أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب . وأن البعيد
ما ليس بآت .

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول .
ومن غير مواعدة ومواطاة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء .
ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في
نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون
الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا .

كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت
فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة . ثم
يفضي إلى الموت .

فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل

قريب ، أما تتدبرين قوله تعالى : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ
وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ
مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَأَهِيَ قُلُوبُهُمْ ... » (١) .

ويحك يا نفس .. إن كانت جرائعك على معصية الله
لاعتقادك أن الله لا يراك ، فما أعظم كفرك وإن كان مع
علمك باطلاعه عليك ، فما أشد وقاحتك وأقل حيائك .

ويحك يا نفس .. لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ
من إخوانك بما تكرهينه . كيف كان غضبك عليه ،
ومقتك له ؟ فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه ،
وشديد عقابه .

أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيهات هيهات ،
جربى نفسك . إن أهلك البطر عن أليم عذابه فاحتسبى
ساعة في الشمس ، أو في بيت الحمام ، أو قربى أصبعك
من النار ليتبين لك قدر طاقتك ، أم تغترين بكرم الله
وفضله ، واستغنائه عن طاعته وعبادتك ؟ ! .

فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ،
فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ؟ ولا تكلينه

(١) سورة الأنبياء الآية ١ .

إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من
شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدنيار والدرهم .

فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه
الحيل ، فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك
على كنز ، أو يستخر عبداً من عبيده ، فيحمل إليك ،
حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله
كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل
لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان
إلا ما سعى .

ويحك يا نفس . . ما أعجب نفاقك ، ودعاويك
الباطلة !! فإنك تدعين الإيمان بلسانك ، وأثر النفاق
ظاهر عليك .

ألم يقل سيدك ومولاك : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... » ^(١) ، وقال في أمر الآخرة : « وَأَنْ
لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » ^(٢) . فقد تكفل لك بأمر الدنيا
خاصة ، وصرفك عن السعي فيها ، فكذبتك بأفعالك ،
وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ،

(١) سورة هود الآية ٦ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٩ .

وكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض
المغرور المستحقر ، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان
باللسان ، فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟
ويحك يا نفس . . كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ،
وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت ، وهيهات أتحسبين
أنك تتركين سدى ، ألم تكوني نطفة من منى يمنى ، ثم
كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي
الموتى ، فإن كان هذا من إضمارك ، فما أكفرك وأجهلك ،
أما تتفكرين أنه من ماذا خلقك ؟ من نطفة خلقت فقدرك
ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذابينه في
قوله : « ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرُهُ » ^(١) ؟ فإن لم تكوني مكاذبة ،
فما لك لا تأخذين حذرک ؟

ولو أن يهودياً أخبرك في ألد أطعمتك بأنه يضرك في
مرضك لصبرت عنه ، وتركته ، وجاهدت نفسك فيه ،
أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله تعالى
في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك
عن حدث وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ؟
والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت

(١) سورة عبس الآية ٢٢ .

ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان . أفكان
قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك
من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ أم صار حر جهنم ،
وأغلاها وأنكأها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها
وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسین بآلها
إلا يوماً أو أقل منه ؟ ما هذه أفعال العقلاء ؛ بل لو انكشف
للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك . فإن
كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به ، فما لك
تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ، ولعله يختطفك من
غير مهلة ؟ فيها - إذا آمنت - استعجال لأجل ؟

وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة ، أفتظنين أن
من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع
العقبة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك .

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة ، فأقام فيها
سنين متعطلاً بطالاً ، يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة
عند رجوعه إلى وطنه ، هل تضحكين من عقله وظنه ؟
أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن
مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله
سبحانه وتعالى ، ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع :

وأنه موصل إلى الدرجات العلا ، فلعل اليوم آخر عمرك ،
فلم لا تشتغلين فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال ،
فما المانع من المبادرة ؟ وما الباعث لك على التسويف ؟
هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من
التعب والمشقة ؟

أفتنظرين يوماً يأتيتك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ؟
هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة
محفوظة بالمكارة ، ولا تكون المكارة قط خفيفة على
النفوس ، وهذا محال وجوده .

أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك . وتقولين : غداً
غداً ؟ أفقد جاء الغد وصار يوماً ؟ فكيف وجدته ؟ ،
أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم
الأمس ؟ لا ، بل تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز
وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد فيها
العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها
كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها
إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة
ورسوخاً ، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً . فما لا يقدر عليه
في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب ، بل من العناء

رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب ، والقضيب
الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان .
لم يقبل ذلك .

فإذا كنت أيتها النفس لاتفهمين هذه الأمور الجلية
وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ؟ وأية
حماقة تزيد على هذه حماقة ؟ ولعلك تقولين : ما يمنعني
عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى
على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك
إن كنت صادقة فى ذلك ؟ فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية
عن الكدورات الدائمة أبداً الآباد ، ولا مطمع فى ذلك إلا فى
الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها ،
فرب أكلة تمنع أكالات .

وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك
الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره .
وأخبره إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً ، وامتنع عليه
شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة
أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقتضى شهوته
فى الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم
المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ، وجميع عمره .

بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع عمرك وإن طال مدته .

وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة ، وأطول مدة ، أو ألم النار في دركات جهنم ، فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة ، كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر : فحق أو لحق جلي .

أما الكفر الخفي : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب . وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحمق الجلي : فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه ، من غير التفات إلى مكره واستدراجه ، واستغنائك عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعونها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل ، وهذا الجهل تسنحفين لقبب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

وبحك يا نفس .. لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ،
ولا يغرنك بالله الغرور . فانظري لنفسك ، فما أمرك بهم
لغيرك ، ولا تضيعي أوقاتك ، فالأنفاس معدودة ، فإذا
مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمي الصحة
قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل . والغنى قبل الفقر ،
والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدي للآخرة
على قدر بقائك فيها .

يا نفس .. أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ؟
فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ،
ولا تتكلمين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك
البرد من غير جبة ولبس وحطب وغير ذلك فإنه قادر
على ذلك .

أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً
وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون
هذا ؟ كلاً أن يكون هذا كذلك . أو أن يكون بينهما
مناسبة في الشدة والبرودة .

أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي . هيهمات
كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب ،
فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد . وخذل

الطاعات ، وإنما كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهذاك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والعجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها . وإنما هي طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها . والله غني عن العالمين .

ويحك يا نفس . . انزعي عن جهلك ، وقيسي آحرتك بدنياك . فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما بدأكم تعودون . وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً .

ويحك يا نفس . . ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين في نفسك مودتها ، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك . أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر إلى مفارقتها ؟ أهو معدود من العقلاء أم من الحمق ؟

أما تعلمين أن الدنيا داراً للملك الملوك ، ومالك فيها
إلا مجاز ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد
الموت ؟ ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم : « إن
روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك
مفارقة ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وعش ما شئت
فإنك ميت » .

ويحك يا نفس . . أتعلمين أن كل من يلتفت إلى
ملاذ الدنيا ، ويأنس بها - مع أن الموت من ورائه ،
فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من
السم المهلك وهو لا يدري ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا
كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف ورث الله
أرضهم وديارهم لأعدائهم ؟ أما ترين كيف يجمعون
ما لا يأكلون ، ويبنّون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون ؟
يبني كل واحد قصرًا مرفوعًا إلى جهة السماء ، ومقره قبر
مخفور تحت الأرض ، فهل في الدنيا حمق وانتكاس
أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينًا
ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعًا .

أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على
حماقتهم ؟ واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى

هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء ،
فقيس عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين
على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن
كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء .

يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك !!
عجباً لك !! كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ؟
ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمهما ،
أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من
بعض الناس إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض
سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة
لا تبقى أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك
وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك
كما أتى على الملوك الذين كانوا ممن قبلك ، فهل تحس
منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ؟ فكيف تبيعين يا نفس
ما يبقى أبداً الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن
بقى هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق
والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب
كيف ويأبى إديبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك ،
بل أمر دارك أفضل عن محلتك ، فإن كنت يا نفس

لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ،
فمالك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها وتنزهاً عن
كثرة عنائها ، وتوفياً من سرعة فنائها ؟ أم مالك لا تزهدين
في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين
بدنيا إن ساعدتك . فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود
والمجوس يسبقونك بها . ويزيدون عليك في نعيمها
وزينتها .

فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهالك .
وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكوّن
في زمرة المقربين من النبيين والصديقين في جوار رب
العالمين أبد الآبدين ، لتكوّن في صنف النعال من جملة
الحمقى الجاهلين أياماً قلائل . فيا حسرة عليك إن خسرت
الدنيا والدين ، فبادري .

ويحك يا نفس . . فقد أشرفت على الهلاك . واقترب
الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلّي عنك بعد الموت ؟
ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك
ربك بعد الموت ؟

ويحك يا نفس . . مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك
إن اتجرت فيها ، وقد ضيعت أكثرها . فلو بكيت بقية

عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك ،
فكيف إذا ضيعت البقية وأحسرت على عادتك ؟
أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ،
والتراب فراشك . والدود أنيسك . والفرع الأكبر بين
يديك .

أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب
البلد ينتظرونك ؟ وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالآيمان
المغلظة أنهم لا يبرحون مكانهم ما لم يأخذوك معهم .

أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا
يوماً ليستغلوا بتدارك ما فرط منهم ؟ وأنت في أمنيتهم ،
ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه
لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة .
ويحك يا نفس . . أما تستحيين من الخالق ؟ ويحك . .
أهو أهون الناظرين ؟ أتأمرين الناس بالخير وأنت
متلطخة بالردائل ؟ تدعين إلى الله وأنت قارة . وتذكرين
بالله وأنت ناشية .

أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة ،
وأن العذرة لا تطهر غيرها ؟ فلم تطمعين في تطهير غيرك
وأنت غير طيبة في نفسك ؟

ويحك يا نفس.. لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت
أن الناس ما يصيبهم بلاءٌ إلا بشؤمك .

ويحك يا نفس.. قد جعلت نفسك حماراً لإبليس
يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين
بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس
لكان الربح في يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة
خطاياك وزللِكَ ؟ وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد
أن عبده مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة
واحدة مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس.. ما أغدرك ؟

ويحك يا نفس.. ما أوقحك .

ويحك يا نفس.. ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي ؟

ويحك كم تعقدين فتنقضين ؟

ويحك كم تعهدين فتعذرين ؟

ويحك يا نفس.. أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة
دنياك كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل
القبور كيف كانوا جمعوا كثيراً وبنوا مشيداً وأملوا
بعبدا فأصبح جمعهم بوراً ، وبنياهم قبوراً . وأملهم
غروراً ؟

ويحك يا نفس .. أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم
نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟
هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت إلا في هدم عمرك
منذ سقطت من بطن أمك ، فابنى على وجه الأرض قصرك
فإن بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو
رسل ربك منحدره إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه
وبشرى بالعذاب ، فهل ينفعك حينئذ الندم ، أو يقبل
منك الحزن ، أو يرحم منك البكاء ؟

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا
تدعين البصيرة والفتنة ، ومن فطنتك أنك تفرحين كل
يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع
مال يزيد وعمر ينقص .

ويحك يا نفس .. تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة
عليك ، وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك ، فكم من
مستقبل يوماً لا يستكملهُ ؟ وكم من مؤهل لغد لا يبلغه ؟
فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك ،
فترين تحسرهم عند الموت ، ثم لا ترجعين عن جهالتك .
فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على

نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله
عن عمله دقيقه وجليله ، سره وعلا نيته .

فانظري يا نفس بئى بدن تقفين بين يدي الله ،
وبئى لسان تجيبين ؛ وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب
صواباً ، واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال ،
وفي دار زوال لدار مقامة ، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم
وخلود . اعلمي قبل أن لاتعلمي ، اخرجي من الدنيا اختياراً
خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ،
ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا ، قرب مسرور
مغبون ، ورب مغبون لا يشعر ، قويل لمن له الويل ثم
لا يشعر ، يضحك ويلهو ، يأكل ويشرب ، وقد حق له
في كتاب الله أنه من وقود النار .

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً . وسعيت
لها اضطراراً ، ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة
ابتداراً . ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي
الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهي .

واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان
بدل ، ولا للجسد خلف . ومن كان مظيته الليل والنهار
فإنه يسار به وإن لم يسر .

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة . واقبلي هذه النصيحة ،
فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار . وما أراك بها
راضية . ولا هذه الموعظة واعية . فإن كانت القساوة تمنعك
عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام
فإن لم تنزل فبالمواظبة على الصيام . فإن لم تنزل فبقلة
المخالطة والكلام ، فإن لم تنزل فبصلة الأرحام واللطف
بالأيتام ، فإن لم تنزل فاعلمي أن الله قد ضيع على قلبك
وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره
وباطنه ، فوطئي نفسك على النار . فقد خلق الله الجنة ،
وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، فكل ميسر
لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من
نفسك - والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك -
فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع
انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء .

فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي
ابتليت بها ؟ وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على
نفسك ؟ فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة .
فقد بقى فيك موضع للرجاء .

فواظبي على النياحة والبكاء ، واستعيني بأرحم

الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ، وادمنى الاستغاثة
ولا تملى طول الشكاية ، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك .
فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقت ، وتماديك
قد طال وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل .
فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ
ولا منجأ إلا إلى مولاك .

فافزعى إليه بالتضرع ، واخشعى فى تضرعك على قدر
عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل .
ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد
أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ،
وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت
منك الحيل ، ولم تنجح قيك العظام ولم يكسرك التوبيخ
فالمطلوب منه كريم ، والمسئول جواد ، والمستغاث به برّ
رعوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل .
وقولى : يا أرحم الراحمين ، يا رحيم ، يا حلیم ، يا عظيم ،
يا كريم أنا المذنب المصرّ الجريء الذى لا أقلع ، أنا المتماذى
الذى لا أستحى ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس
الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق فعجل إغاثتى
فرجى ، وأرني آثار رحمتك ، وأذقني برد عفوك ومغفرتك

وارزقني قوة عظمتك ، يا أرحم الراحمين ، اقتداءً بأبيك
آدم عليه السلام ، فقد قال وهب بن منبه : « لما أهبط
الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقاً له دمة فاطلع
الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب
كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا
الجهد الذي أرى بك ؟ قال : يارب عظمت مصيبتى
وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى ، فصررت
في دار الهوان بعد الكرامة ، وفي دار الشقاء بعد السعادة .
وفي دار النصب بعد الراحة ، وفي دار البلاء بعد العافية .
وفي دار الزوال بعد القرار ، وفي دار الموت والفناء بعد
الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكى على خطيئتي ؟ فأوحى
الله تعالى : يا آدم ألم أصطفك لنفسى وأحللتك دارى ،
وخصصتك بكرامتى ، وحذرتك سخطى ؟ ألم أخلقك
بيدى ؟ ونفخت فيك من روحي ، وأسجدت لك ملائكتي
فعصيت أمرى ، ونسيت عهدي ، وتعرضت لسخطى ،
فوعزتي وجلالى لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدوننى
ويسبحوننى ، ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين » .
فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبید الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه

كل ليلة : « إلهي أنا الذي طال عمري زادت ذنوبي ،
أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة
أخرى ، واعبيداه خطيئة لم تبلى ، وصاحبها في طلب أخرى
واعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى ، واعبيداه إن
كانت المقامع لرأسك تهيأ ، واعبيداه قضيت حوائج
الظالمين ولعل حاجتك لا تقضى . »

وقال منصور بن عمار سمعت في بعض الليالي بالكوفة
عابداً يناجي ربه وهو يقول : « يارب وعزتك ما أردت
بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك ، وأنا بمكانك
جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض . ولا لنظرك مستخف ، ولكن
سولت لي نفسي ، وأعانني على ذلك شقوتي . وغرني سترك
المرضى عليّ ، فعصيتك بجهلي ، وخالفتك بفعل ، فمن
عذابك الآن من يستنقذني ، أو بحبل من أعتصم إن
قطعت حبلك عني ، واسوأته من الوقوف بين يديك غداً
إذا قيل للمثقلين : حطوا ، أمتع المخفين أجوز أم مع
المثقلين أخط ؟ ويل كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ،
ويل كلما طال عمري كثرت معاصي هيلي متى أتوب ،
وإلى متى أعود ؟ أما آن لي أن أستحي من ربي »

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم ، وفي معاتبة نفوسهم .

فخرس الكتاب

٥	فقه أعمال القلوب ...
٥	في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ...
٩	بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ...
١١	الفصام في عصر المحاسبي ...
١٥	الإمام المحاسبي ...
١٥	نشأته وحياته ...
١٩	شيوخه ...
٢٢	مؤلفات المحاسبي ...
٢٤	كتاب معاتبة النفس ومنهج التحقيق ...
٢٤	وصف المخطوطة ...
٢٤	منهج المؤلف في الكتاب ...
٢٥	منهج التحقيق ...
٢٧	النص المحقق ...
٣١	الظهر والبطن والحد والمطلع ...
٣٤	الأمن والغفلة ...
٣٧	احذر قسوة القلب ...
٤٠	احذر السلب بعد العطاء ...
٤٢	أنت لا تطيق غضب الله ...
٤٣	اذكر نظر الله إليك ...
٤٧	تذكر ساعة الموت ...
١٠٩	

الموضوع	الصفحة
توهم عذاب النار وعد إلى ربك	٥١
وازن بين النعيم والعذاب	٥٣
بادر أمرك في الدنيا	٥٦
استحي من الله وحده	٦١
لا تقنط من رحمة الله	٦٤
تذكر عذاب القبر	٦٥
داوم على الإغاثة والدعاء لله	٦٧
تذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً	٦٩
تذكر يوم الحساب	٧٣
اطلب الإغاثة بالتوبة من الذنوب	٧٩
معاينة النفس عند الغزالي	٨٥
الفهرس	١٠٧

• • •

رقم الايداع ٧٧٨٢ / ٨٦
الترقيم الدولي X - ١٤٥ - ١٤٢ ٩٧٧

دار النصار للطباعة الإسلامية
١٢ شارع - هجر - مصر

